الباب الأول:
ثقافة رفض "الآخر"

obeikandl.com

الفصل الأول:

ثقافة رفض "الآخر"

في القرآن الكريم

obeikandl.com

طرحت ثقافة قبول الآخر نفسها بقوة على الثقافة الإنسانية خلال العقود القليلة الماضية ثم صعدت لواجهة المشهد خلال السنوات القليلة الماضية غير أن ثقافة قبول الآخر ما كان لها أن تتجذر في غياب دراسات جادة عن ثقافة رفض الآخر التي شاركت بنصيب وافر في تحريك التاريخ البشري خلال القرون الخمسة الماضية التي أعقبت اقتسام الأمريكتين واستراليا بين القوى الاستعمارية الأوروبية الكبرى حيث بدأت البشرية فصلا ممتدا من الصراع على الأرض والموارد وتدافعا لنشر القيم الثقافية لكل أمة بوصفها "الحضارة" وعندئذ كانت الثقافة التي تتعرض للاقتلاع والإبادة توصف بأنها حضارة "الآخر" وتم وصفها بكل ا هو سلبي وسعت كلا أمة في الغرب إلى التمركز حول شارة مميزة: دين، مذهب، قومية، لغة.... لتعرف نفسها من خلالها معتبرة أنها مرتكز الهوية التي تعرف "الأنا" وبالتالي تعزل بها نفسها كل من لا يحمل شارتها وهو "الآخر".

وهناك مداخل عدة يمكن الدخول منها لمناقشة "ثقافة رفض الآخر" كنقيض لثقافة "قبول الآخر":

الأول: أن نعرف الكلمات الثلاث (ثقافة - رفض - الآخر) لغة ونتتبع ما كتب فيها في المصادر المتاحة - ومعظمها غربي - ومن ثم نبدأ طريقنا ونحن نسلم بأننا سنكون ضيوفا على ثقافة أخرى. وغاية ما يمكن تحقيقه آنذاك أن نجتهد لرصد نقاط اتفاق واختلاف شكلية، وغالبا يقود هذا إلى مسارات غير مثمرة إذ تتوزع الكتابات بين: النقد المتشنج، والتلفيق المضحك، والغرق في القضايا الأكاديمية الشكلية، دون حصاد يذكر.

الثاني: أن نغلّب إحساسنا بالقهر والظلم الذي عانيناه على يد القوى الغربية

المختلفة على عقولنا ونضع المفهوم كله في سياق "تآمري" ونغلق باب النقاش "بالضبة والمفتاح" قبل أن يبدأ، وكفى الله المؤمنين القتال.

الثالث: وهو ما اخترنا أن ندخل منه أن نتناول المفهوم انطلاقا من تأصيله عقديا وشرعيا أولا، واضعين كل ما لدى الغرب بشأنه من مفاهيم وتجارب في مكانه الصحيح - دون تهوين أو تهويل - في سياقه التاريخي والثقافي الصحيح بوصفه تعبيرا عن "جزء من العالم"، ذلك أن "ثقافة قبول الآخر" ليست منتجا غربيا حتى لو كان الغربيون أسبق في بلورة المصطلح بمنطوقه الحالي.

* * * * *

openkandl.com

أنا خير منه

كانت قضية "الآخر" من مفردات مشهد الخلق الأول عندما خلق الله آدم عليه السلام ولنبدأ القصة من أولها، ففي المشهد الأول رب العزة سبحانه وتعالى يخبر الملائكة أنه سيخلق "خليفة"، قال تعالى:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}. (سورة البقرة).

والخليفة الذي أخبر الله ملائكته أنه سيجعله في الأرض هو "الآخر" الذي طرأ على عالم فيه نوعان من الخلق: ملائكة مفطورون على الطاعة لا يعصون الله ما أمرهم وجن مكلفون، قال تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} (سورة الكهف ٥٠) وبالتالي فإن إبليس هذا الجن المكلف السابق في الوجود على آدم كان يريد أن يكون هو وقبيله الوريث الوحيد المحتمل للجنة، فهو دون "منافس" كان بين الملائكة ورب العزة يستثنيه منهم "إلا إبليس"، ثم يخبر أنه من الجن.

ورفض إبليس السجود لآدم إلى جانب كونه معصية لرب العالمين هو أول موقف رفض لـ "الآخر" وإبليس عندما رفض آدم برر ذلك بأنه خير منه، يقول رب العزة مخاطبا بني آدم:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} (سورة الأعراف).

وفي سورة الإسراء:{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً}.

وفي "سورة ص" تكشف الآيات عن مزيد من العبر والدلالات المهمة في قصة الاستكبار الإبليسي، قال تعالى:

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} (سورة ص).

وما يلفت النظر هنا أن رب العزة في حواره مع إبليس لم ينسب لأدم من فضل إلا أنه سبحنه وتعالى خلقه بيديه وبالتالي فإن رفض إبليس السجود ه إنما هو تمرد على الخالق لا المخلوق ولم يقطع رب العزة بأن إبليس تمرد بسبب الكبر - وهو سبحانه وتعالى أعلم به - قال{أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ}.

وحسب الأستاذ عباس محمود العقاد فإن "الشيطنة" يمكن تلخيصها في صفات: الكبرياء والعصيان والحسد والكراهية والباطل والخداع، فالكبرياء

افتئات على مقام الإله والحسد إنكار لنعمته واعتراض على تقديره، والكراهية صفة قد يتصف بها الأبرار حينا بعد حين إذا كانت كراهية هذا العما البغيض أو لذلك المخلوق الدميم، ولكنها إذا كانت قوام الطبيعة كلها فهي صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الإلهية في تاصميم وهي الحب ولوازمه من البر والإنعام، أما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء.

وهنا نتوقف.. لنرصد أهم ملامح المشهد:

١ - هذه أول حادثة تقسيم بين المخلوقات المختارة المكلفة يتمركز فيها طرف حول "الأنا" وهو إبليس (خلقتني) ويضع فاصلا بينه وبين "الهو" وهو آدم عليه السلام (خلقته).

٢ - إبليس رفض السجود لآدم وبرر ذلك بأنه خير منه.

٣ - في نظر إبليس نفسه فإن مبرر استحقاقه لوصف "الأفضل" هو المادة التي خلق منها كل منهما، وقول إبليس يعني أن المواد في الكون تتفاضل من حيث أصلها، ويعني أيضا أنها مُرتَّبة في ترتيب تنازلي النار فيه خير من الطين، وكلها ادعاءات لا يسندها الدليل، وهي الأساس النظري لكل المقولات العنصرية التي ظهرت في الفكر الإنساني.

٤ - رب العزة سبحانه وتعالى حكم على إبليس بسبب هذا الموقف بأنه "متكبر" وقضى بإخراجه من الجنة.

وأهم ما في هذا المشهد من عبر أن إبليس المكلف الذي يعرف أنه مخير وأنه ارتقى بقدر ما كان طائعا لله سبحانه وتعالى ربط الخيرية في ذاته بأمر ليس مكتسبا وليس مدار اختيار وهو المادة التي خلق منها، وتلك إرادة الله التي

لا فضل لـه فيها لا هو ولا آدم، فلا هو اختار أن يكون مخلوقا من نـار ولا آدم اختار أن يكون مخلوقا من طين، وهنا يأتي "الكبر"، فمن كـان أفضـل بسبب مـا خلق منه فليس به حاجة لكي يحافظ على أفضليته وخيريتـه لأن يفعل الخير أو يتجنب الشر لأن الخيرية هي في أصل مادته.

في المشهد التالي يفعل الكبر فعله وتظهر أخطر سمات ثقافة "رفض الآخر" وهي الانشغال بتدمير "الآخر" أو إضلاله عن تحقيق النجاة لـ "الذات"، فإبليس عندما أبى السجود وأخرجه الله بذلك من الجنـة لـم ينطق كلمـة ندم أو توبـة ولـم يفكر فيما ينجيه هو من غضب الله بل توجه بكل تركيزه إلى هدف أملاه الكبر وهو حرمـان "الآخر" من الجنـة، أي أن إضـلال "الآخر" أصبح أهم من نجاة "الذات". وقد نقل القرآن هذا الاختيار الإبليسي في مواضع عدة، قال تعالى:

{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} (سورة الأعراف - ١٦)

وقال أيضا في سورة ص: "قال{فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}(ص ٨٢)

وفي سورة الحجر:{لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} (٣٩)

وفي سورة الإسراء:{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً} (٦٢).

وفي سورة النساء:{وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُبَـتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَـامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ} (سورة النساء ١١٩).

ودون أن يتوجه الإنسان بأي عداء نحو الشيطان أصبح الشيطان عدوا للإنسان:

{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (سورة الأعراف ٢٢)

{إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (سورة يوسف ٥)

{إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُواً مُّبِيناً} (سورة الإسراء ٥٣)

{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً} (سورة فاطر ٦)

{وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (سورة الزخرف ٦٢)

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (سورة يس ٦٠)

وهذا التأصيل يكشف عن الكثير من الحقائق المهمة التي ستنير طريق دراستنا لثقافة قبول الآخر، ففكرة التراتب بين الموجودات (كما في حالة الطين والنار) هي نفسها الأساس الذي ارتكزت عليه الثقافات العنصرية القديمة والحديثة فكلها افترض أن الفضل موروث وأنه مرتبط بالانتماء إلى جنس أو عرق أو لون بشرة مما لا سبيل لأن ينحاز إليه أحد باختياره ولا أن يكتسبه أحد باجتهاده.

وربط الخيرية بما لا يمكن اكتسابه موقف معاد لقاعدة التفاضل في الأديان السماوية معاداة تامة فالفضل دائما هو ما يمكن كسبه: الإيمان، التقوى، العمل الصالح.... وبالتالي فإن أشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي المغلقة التي تتمحور حول فئة، كالعِرق في الفكر القومي والطبقة في الفكر الماركسي هذه الأشكال تكون أرضا جرداء غير قابلة لأن تنمو فيها "ثقافة قبول الآخر".

* * * * *

obeikandi.com

التخلص من الآخر

وأخطر ما ترتب على ثقافة رفض الآخر انتهاك محرماته وصولا إلى استباحته أحيانا لمجرد أنه "الآخر" وهو ما سنمر عليه لا حقا عند التاريخ لثقافة "رفض الآخر" في عصور مختلفة. وتعد قصة أصحاب الأخدود النموذج الأكثر قسوة في القرآن الكريم لمرض "رفض الآخر" عندما يتحول إلى عملية استباحة شاملة يقول تعالى في سورة البروج:{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ} (سورة البروج).

ويروي الإمام مسلم في صحيحه حديث طويل عن قصة أصحاب الأخدود: فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلاَمًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلاَمًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلاَمَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ. فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلاَ

Obeikandl.com

تَدُلَّ عَلَيَّ. وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَا هُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ. فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ. فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ: لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ: لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ

فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ». (صحيح مسلم حديث رقم ٧٧٠٣، وراجع أيضا سنن الترمذي حديث رقم ٣٦٦٣).

فأصحاب الأخدود هنا رمز للإيمان الذي يحاصره الكفر فيكون هو "الآخر" المُضطهَد الواقع تحت قهر التضييق من التيار العام السائد.

وكذلك كان لوط عليه السلام في قومه فعندما حاول عليه السلام أن يغير الاتجاه السائد في قومه الذي كان "الأنا" في قوم لوط وهو الشذوذ حاورهم بالحجة فلم يجدوا إلا التخلص منه ردا على الحجة، قال تعالى:{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} (سورة النمل). فـ "جريمة" نبي الله لوط في نظرهم كانت أنه خارج عن السياق العام.. أي عن السائد.. أي عن الأغلبية.. حتى لو كان السائد هو الفاحشة والشذوذ، فعندئذ يصبح من يدعو للطهر هو الآخر الذي يجب التخلص منه!

غير أن مرض رفض الآخر يقترن في قصة لوط عليه السلام بالاستكبار وغرور القوة فما من أمة أو جماعة أصيبت بمرض الاستكبار إلا توجهت نحو الآخر بالأذى بدرجاته المختلفة وصولا إلى الإبادة، ولم تكن القوة يوما في ميزان العدل الإلهي أثقل من الحق فهذا نبي الله لوط يطلق نفثة محزنة رغم ثقته في أن الله سينصره، فهو لا يجد غضاضة في أن يقر بأنهم أقوى منه بمعايير القوة الدنيوية يقول تعالى على لسانه:{لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} (سورة هود ٨٠).

* * * * *

الآخر كمشكلة أخلاقية

وقد ربى الإسلام أبناءه على التحذير من الكبر والاستكبار وهو أمر له أهمية استثنائية في الإسلام حتى أنه يحرم من أصيب به من دخول الجنة، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ". قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» (صحيح البخاري حديث رقم٢٧٥، وراجع أيضا حديث رقم ٢١٣٠)، فإنكار الحق وظلم "الناس" من أعراض الكبر وكلاهما تربة تنمو فيها أمراض "رفض الآخر".

وخرج الألباني في السلسلة الصحيحة (حديث رقم: ٥٤١): «قال الله عز وجل الكبرياء ردائي والعزة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار». (صحيح). وورد بلفظ: «العز إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني بشيء منهما عذبته». أخرجه مسلم في صحيحه والبخاري في الأدب المفرد واللفظ له. وللحديث طرق أخرى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه قال: «الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته» (صحيح). الكبر إذن منازعة لله سبحانه وتعالى في شيء من صفات ألوهيته وهو ما سنصادفه كثيرا عند استعراض نماذج رفض الآخر في الحضارات المختلفة وفي العصور المختلفة حيث كان التأله دائما صفة من يسكون هذا المسلك أفرادا كانوا أو جماعات أو دول وكذلك الثقافات.

وفي السلسة الصحيحة للألباني أيضا (حديث رقم ٢٧٨٥): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من فارق الروح الجسد وهو بريء من ثلاث دخل الجنة

الكبر والدين والغلول»، وقال أيضا: (حديث رقم١٧٤١) «إن أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون».

وتأتي قصة يوسف عليه السلام نموذجا مهما لثقافة "رفض الآخر" فأحيانا تقع جريمة استباحة الآخر لكونه حسب تصور من يستبيحه سبب إقصائه عن موقع الأفضلية حيث يعجز الرافض لقبول الآخر عن حيازة موقع الأفضل بجهده واكتسابه فيتصور أن "التخلص" من "الآخر" يحقق له ذلك. ولعل مشهد الختام في قصة هو المدخل الأفضل، ففيه ينسب نبي الله يوسف ما حدث بينه وبين إخوته إلى الشيطان وهو ما يعيدنا إلى بداية هذا الفصل عندما أسس الشيطان ثقافة "رفض الآخر".

قال تعالى:{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} (سورة يوسف ١٠٠).

فإذا عدنا إلى سياق القصة كما وردت في سورة يوسف وجدنا يوسف عليه السلام محل اصطفاء إلهي ووجدنا أباه يحذره من الإعلان عن ذلك حتى لا يكيد له إخوته ومرة أخرى نجد الشيطان حاضرا بقوة، قال تعالى:{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ

وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ} (سورة يوسف)

وفي هذا النموذج من نماذج رفض الآخر نجد الكثير مما يجب التوقف عنده:

أولا: نبي الله يعقوب كان يخشى "منهج الشيطان" الذي يقوم على "رفض الآخر" وإنكار أحقيته في التميز وفي أن يكون أفضل وكان يتوقع أن يكيد إخوة يوسف عليه السلام له.

ثانيا: إخوة يوسف عليه السلام لم يروا في حب نبي الله يعقوب ليوسف وأخيه إلا ضلالا ولم يتحرجوا من وصفه بذلك.

ثالثا: كما اعتبر إبليس أن كونه مخلوقا من نار سببا لأن يكون أفضل من آدم عليه السلام وهو تمييز لا يقبله العقل ويقوم على التحكم والأنانية والغرور فإن إخوة يوسف رأوا أن اجتماعهم سبب يبرر أن يعتبروا أنفسهم أفضل من يوسف عليه السلام وأنهم أحق بحب أبيهم، وهو الآخر مبرر للفضل لا يقبله العقل.

رابعا: إخوة يوسف لم يفكروا في مبررات مكتسبة للفضل أخلاقية كانت أو تعبدية بل اعتبروا أنهم سيكونون في وضع أفضل إذا تخلصوا من يوسف عليه السلام حتى يخلو لهم وجه أبيهم. بل إنهم كانوا على قناعة بأنهم سيكونون بعد التخلص منه "قوما صالحين"!

وبالتالي فإن ثقافة "رفض الآخر" لا تخلو من ضلالات يسوغها الشيطان وترفضها الفطرة كما يرفضها العقل.

وفي ثقافة "رفض الآخر" فإنه يكون موضوع استباحة شاملة تشمل خداعه

وإضلاله ورفض الاحتكام لمعايير أخلاقية معه، وفي صراع إبليس مع آدم كان رب العزة قد وضع لآدم عليه السلام قانونا للحياة، قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ} (سورة البقرة). وفي سورة الأعراف يخبرنا القرآن بتفصيل أكثر ويكشف عن حقيقة المنهج الأخلاقي لإبليس في تعامله مع الآخر على قاعدة الاستباحة، قال تعالى:

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (سورة الأعراف).

ولنتأمل الآيات، فالله سبحانه وتعالى غضب على إبليس لأنه

"متكبر" وإبليس لم يطلب سوى "فرصة للتحدي"{فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} ولم تكن الفرصة ليتوب أو ليثبت لرب العزة أنه من خلال فعل الخير أفضل من آدم بل جعل همه الوحيد أن يثبت أن آدم لا يستحق التكريم،{لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} وبتعبير أوضح: بدلا من أسير "أنا" في طريق الخير سأستدرج "الآخر" إلى طريق الشر!

والآيات تفضح حقيقة المنهج اللا أخلاقي لإبليس، قال تعالى:{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} (سورة النمل ٢٤)، وهذا في شأن قوم سبأ، ويقول تعالى:{وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} (سورة العنكبوت ٣٨)، ويقول تعالى:{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ} (سورة الأنفال ٤٧) إنها ثقافة الاغترار بالنفس والاستكبار، والشيطان دائما "يزين" للمخدوعين أعمالهم.

ويشير القرآن الكريم إلى حالة من حالات الملاحقة والمحاصرة يقوم بها إبليس منذ خلق الله آدم، قال تعالى:{ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ}، وحتى يسقط آدم في خطيئة المعصية بدأ إبليس أو معاركه بسلاح "الوسوسة":{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}، وسمى الوسوسة "نصحا"، يقول صاحب "القاموس القويم للقرآن الكريم": "أقسم: حلف...... وقاسمه: أقسم له" ثم يورد الآية ويقول: "أي إن الشيطان أقسم لآدم وحواء قائلا إني لكما لمن الناصحين" فقد أقسم وأكد قسمه باللام إمعانا في التضليل، ودغدغ في نفسيهما التوق الإنساني إلى الخلود والملائكية.

وجميعها منابع "لثقافة رفض الأخر" في صورتها الحديثة كما سنرى في موضع لاحق.

وفي سورة الإسراء:{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً}، يقول صاحب "القاموس القويم للقرآن الكريم": "احتنك فلانا: استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز كأنه وضعه في حنكه فلا يفلت منه" ثم يورد الآية ويقول: "اي لأملكن أمرهم وأستولي عليهم فلا يعصون أمري". واستيلاء الشيطان على فئة من الناس حقيقة قرآنية والسمات التي يكشف عنها القرآن في هؤلاء هي نفسها سمات المنهج الأخلاقي للشيطان:{وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}....{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}.... وهم لا يرتكبون هذا الجرم بحق "الآخر" الناس بل سيفعلون ذلك أمام الله سبحانه وتعالى في الآخرة:{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}....{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} (سورة المجادلة ٤١ - ٢٠).

وقد قامت التصورات السياسية الشمولية بدور خطير في السيطرة على الإنسان ووضعه تحت حصار خانق عبر آليات سياسية واقتصادية تم إخفاؤها وراء مقولات وطنية أو تنويرية تماما كما سمى فعل إبليس عندما سمى "الإضلال" نصيحة، وهي من التجليات السياسية لمفهوم الاستحواذ والاستيلاء الذي توعد به إبليس.

ويمكننا أن نحدد أهم سمات ثقافة "رفض الآخر" على النحو التالي:

١ - ثقافة استئثار أناني بالخير.

٢ - تربط الخير غالبا بمقومات غير قابلة للكسب حتى تحصرها في "الأنا"

وتحرم منها الآخر. وفي مثال إبليس كان هناك ربط الفضل بالتفاضل المزعوم بين الطين والنار، وبذلك ربط الخيرية في ذاته بأمر ليس مكتسبا وليس مدار اختيار وهو المادة التي خلق منها وتلك إرادة الله التي لا فضل لـه فيها لا هو ولا آدم، فلا هو اختار أن يكون مخلوقا من نار ولا آدم اختار أن يكون مخلوقا من طين، وهنا يأتي "الكبر"، فمن كان أفضل بسبب ما خلق منه فليس بـه حاجة لأن يفعل الخير أو يتجنب الشر لأن الخيرية هي في أصل مادته، وفي الثقافات المعاصرة تربط ثقافة رفض الآخر بين الخيرية والانتماء لجنس معين أو ثقافة بعينها وربما لون بشرة معين.

٣ - ثقافة كراهية تهتم بتحطيم الآخر بالإضلال أو الإبادة أو القتل أكثر مما تهتم بنجاة الذات.

٤ - ثقافة كبر واستكبار فرب العزة سبحانه وتعالى حكم على إبليس بسبب هذا الموقف بأنه "متكبر" وقضى بإخراجه من الجنة.

٥ - أخطر سمات ثقافة رفض الآخر انتهاك محرماته وصولا إلى استباحته أحيانا لمجرد أنه الآخر.

٦ - أحيانا تقع جريمة استباحة الآخر لكونه حسب تصور من يستبيحه سبب إقصائه عن موقع الأفضلية حيث يعجز الرافض لقبول الآخر عن حيازة موقع الأفضل بجهده واكتسابه فيتصور أن "التخلص" من "الآخر" يحقق لـه ذلك.

٧ - ثقافة حسد تتمنى زوال ما عند الآخر وتكره أن يحرز فضلا أو خيرا بجهده أو باصطفاء إلهي وفضل من الله لا دخل للإنسان فيه.

٨ - الآخر الذي يقع عليه الرفض والقهر قد يكون رمز الإيمان الذي

يحاصره الكفر أو الفطرة السوية فيقع تحت قهر التضييق من التيار العام السائد، وكذلك كان لوط عليه السلام في قومه فعندما حاول عليه السلام أن يغير الاتجاه السائد في قومه الذي كان "الأنا" في قوم لوط وهو الشذوذ حاورهم بالحجة فلم يجدوا إلا التخلص منه ردا على الحجة.

٩ - ثقافة رفض الأخر تجعل القوة عندما يقترن رفض الآخر بالاستكبار وغرور القوة فما من أمة أو جماعة أصيبت بمرض الاستكبار إلا توجهت نحو الآخر بالأذى بدرجاته المختلفة وصولا إلى الإبادة، ولم تكن القوة يوما في ميزان العدل الإلهي أثقل من الحق.

١٠ - ثقافة رفض الآخر مرتبطة بمرض خطير حاربه الإسلام بقوة وهو "الكبر" ويعني منازعة لله سبحانه وتعالى في شيء من صفات ألوهيته وفي العصور المختلفة كان التأله دائما صفة من يسلكون هذا المسلك أفرادا كانوا أو جماعات أو دول وكذلك الثقافات.

١١ - ترتبط ثقافة رفض الآخر بإنكار أحقية هذا الآخر في التميز وفي أن يكون أفضل.

١٢ - المريض برفض الآخر لا يتحرج من الإساءة إلى أية قيمة مهما كانت قداستها وإخوة يوسف كانوا يصفون أباهم عليه السلام بالضلال.

١٣ - الموقف من الآخر في ثقافة رفض الآخر ليس عقلانيا بل هو تحكمي، وقد مر كيف أن إبليس اعتبر أن كونه مخلوقا من نار سببا لأن يكون أفضل من آدم عليه السلام وهو تمييز لا يقبله العقل ويقوم على التحكم والأنانية والغرور.

١٤ - المريض برفض الآخر يرى أن ما يصدر عنه هو بالضرورة

obeikandl.com

صحيح وخير، وفي حالة إخوة يوسف عليه السلام فإنهم رأوا أن اجتماعهم سبب يبرر أن يعتبروا أنفسهم أفضل من يوسف عليه السلام وأنهم أحق بحب أبيهم، وهو الآخر مبرر للفضل لا يقبله العقل.

١٥ - ثقافة رفض الآخر لا تستند على مبررات مكتسبة للفضل أخلاقية كانت أو تعبدية بل يعتبر أنصارها أنهم سيكونون أفضل بعد التخلص من "الآخر".

* * * * *

openkandl.com

الفصل الثاني:

التنويــر الأوروبــي

والتأسيـــس الحديـــث

لثقافة رفض الآخر

obeikandi.com

تمهيد:

مواجهة ثقافة "رفض الآخر" مرهونة في المقام الأول بفهمها دون انحيازات أو أوهام فكما علمنا علماء أصول الفقه "الحكم على الشيء فرع عن تصوره" والتصور هنا يعني الإدراك الصحيح الذي لا قصور فيه ولا خطأ. وما هو سائد أن ثقافة رفض الآخر كانت من أمراض العصور الوسطى "الدينية" وأن الأديان - وعند بعض الأقل تجنيا - تفسيرات متشددة للأديان هي التي تؤسس لثقافة رفض الآخر. وبالتالي فإن التاريخ الحديث الذي بدأ بالثورة الفرنسية هو البداية الحقيقية لثقافة قبول الآخر وما تفرع عنها من قيم: التعددية - التسامح -.... وأن هذه القيم هي قيم "غربية" غريبة عن ثقافتنا يراد غرسها في تربتها.

وقبل التعرض للموقف من فكرة "نقل" هذه القيم وغرسها رفضا أو ترددا أو قبولا، نود هنا أن نقرر بعض الحقائق بوضوح:

أولا: أن للهداية في القرآن معنى يشمل الهداية إلى الحق الذي جعله الله غيبا عن كل خلقه مثل ذاته سبحانه وتعالى والجنة والنار والملائكة وغيرها من حقائق الغيب وإن كانت الهداية تشمل أيضا هداية المؤمنين إلى سنن الأمم السابقة يقول تعالى:{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ} (النساء ٢٦)، وبالتالي فإن في قصص السابقين التي يرويها القرآن عبر ودروس تتجاوز القصص وتحفل بالدروس العبر التي قد تنير الطريق أمام اللاحقين إن مرت بهم التجارب نفسها التي مر بها السابقون.

ثانيا: أن الثورة الفرنسية نقطة فاصلة في التاريخ الأوروبي تأسست بناء عليها معظم الدول القائمة الآن ويضاف إليها روسيا، بينما دول التشكيل الحضاري الإنجلوسكسوني البروتستنتي: بريطانيا - أمريكا - استراليا - كندا

(وإن كانت هويتها مزدوجة فرنكفونية إنجلوفونية). وفي هذه الدول فإن الدين مقوم رئيس من مقومات بناء الدولة والثقافة معا.

ثالثا: بناء على ما تقدم فسنفرق تفرقة صارمة بين ما هو "أوروبي" تأسس على مثل الثورة الفرنسية ونعني بها القطيعة التامة بين الدين - أي دين - وبين الشأن العام - وما هو "إنجلوفوني" تأسس على مصالحة بين الدين والشأن العام عموما، وبالتالي سنرصد درجة نجاح وإخفاق كل منهما في التعامل مع الآخر قبولا أو رفضا.

الثورة الفرنسية ملهما للطغاة

منذ ميلادها كانت العلمانية الفرنسية (اللائكية) مرتكزة على الفكر العلماني القومي في صورته الأكثر تشددا قبل أن تخفف الليبرالية السياسية غلوائه بالتدريج، وتعد هذه الصيغة الأكثر تمثيلا في الغرب للموقف العلماني الكلاسيكي في معاداته للدين. وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض الأبعاد الملازمة للعلمانية الفرنسية التي لم تكن محايدة إزاء شؤون الدين والمجتمع المدني عامة لأنها كانت من طبيعة جذرية مقاتلة، وذات وجهة معادية للكنيسة الكاثوليكية خاصة وللدين عامة، فقد كان من أول القرارات التي اتخذها رجال الثورة الفرنسية إلحاق الكنيسة بالدولة وتأميم ممتلكاتها، وتحويل رجالاتها إلى موظفين رسميين يتقاضون رواتب معلومة ضمن المهمات الموكولة إليهم رسمياً، بما لا يختلف كثيراً عن أي موظف في أجهزة الدولة.

وهنا أول إخفاق في التعامل مع الأديان بوصفها "الآخر"!

وحتى حينما اضطر نابليون بونابرت إلى إبرام معاهدة وفاقية مع البابوية في روما (معاهدة ١٨٠١) التي اعترف بموجبها بكون الكاثوليكية ديناً لغالبية

الفرنسيين، فقد كان ذلك مشروطاً بجعل الكنيسة في خدمة الدولة وأجندتها الخاصة. ولحق ذلك شيوع مناخات الرعب ومحاولة اقتلاع الكنيسة من منابتها و"تطهير" المجتمع الفرنسي عامة من المظهر والمؤثرات المسيحية، واتسع ذلك أكثر مع عودة البوربون الذين كانوا يحكمون قبل الثورة وتحويل ما سمي وقتها بالإرهاب الأبيض إلى إرهاب قانوني مؤسسي تقوم على إنفاذه مؤسسات الدولة الرسمية. وقد اقترنت العلمانية الفرنسية بقدر غير قليل من التسلط السياسي والجذرية الجامحة.

وتتأسس العلمانية الفرنسية على وطأة ثقيلة وواسعة النطاق للدولة، وتقوم هذه النزعة التدخلية الواسعة على دعامتين نظريتين:

أولاً: اعتبار الدولة العلمانية ضمانة الوحدة والنظام الاجتماعيين، بحكم قدرتها "الخارقة" على تجاوز الانقسامات الاجتماعية والقيمية التي تنخر الجسم السياسي، ومن ثم قدرتها على التعبير على المصلحة العامة والمجردة، وتتأسس هذه الفكرة بدورها على تقليد من تقاليد فلسفة الأنوار مبكر يشدد على شفافية السياسي، وقدرته على "بلورة" الإرادة الكلية. فقد اعتبر جان جاك روسو الدولة الإطار المعبر والمجسد للإرادة الكلية للمواطنين، وهي إرادة ناظمة ومتعالية في الوقت نفسه عن مجموع المصالح الفردية والجزئية، كما أعاد الفيلسوف الألماني هيغل استلهام هذه الفكرة في مرحلة لاحقة في القرن التاسع عشر من خلال تشديده على فكرة الدولة الكلية المجردة والجامعة للفضائل السياسية والأخلاقية، والقادرة في الوقت نفسه على ضمان وحدة المجتمع المدني المنقسم على نفسه في المصالح والمعايير الأخلاقية.

ثانياً: الدولة عند العلمانيين الفرنسيين ليست مجرد أداة لإدارة الشأن العام

بل هي "صوت الأمة"، وموضع حلول العدالة الكاملة والخير الأعظم، ما يعطيها مشروعية التدخل لفرض قيمها وتصوراتها المفترض فيها أن تكون القيم العامة والكلية للمجتمع. هذا ما يفسر فشل رجالات الثورة الفرنسية في ما نجح فيه أقرانهم من رجالات الثورة الأميركية. فبينما عمل الفرنسيون على وضع السلطة - وضمن ذلك في تعبيرها الأكثر كثافة الدولة - وضعها فوق المجتمع، واعتبارها الضامن الأكبر لقيمة الحرية، فإن الأميركيين حافظوا على درجة عالية من التحفز والتحوط من غائلة السلطة، ومن ثم عملوا على وضع أكثر ما يمكن من الحواجز والكوابح أمامها، مع السعي إلى تحويل مركز الثقل من الدولة إلى الوحدات الصغرى للمجتمع المدني، مستفيدين من فكرة مونتسكيو في توزيع السلطات والحد من تمددها أكثر من أقرانهم الفرنسيين.

الثقافة الدهرية

وتراهن العلمانية الفرنسية على إخلاء المجال العام من سيطرة الدين وملئه بالقيم الثقافية "الدهرية"، وتعد المدرسة والمؤسسات التعليمية عامة من أهم أذرعها في إشاعة هذه الثقافة. فالمدرسة عند العلمانيين الفرنسيين ليست مجرد فضاء للتعلم أو لصقل مواهب الطفل وتهذيب حسه المدني، بقدر ما هي الحقل المثالي لإعادة صنع طبيعة ثانية لدى الطفل تقتلعه من المحيط الاجتماعي والأسري، إذ يراهن العلمانيون على تغيير بنية المجتمع من خلال أدوات المدرسة، ولذلك تتوجس العلمانية الفرنسية من كل مظاهر التعبير الديني سواء في شكله المؤسسي أو حتى الفردي.

هذا ما يفسر المعركة الشرسة التي أثارها حدث بسيط - ربما لا يثير مجرد التساؤل في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وبعض البلاد الأوروبية

obeikandl.com

الأخرى - وهو إصرار بعض الفتيات المسلمات على ارتداء الحجاب داخل مدارسهن، فقد نظر إلى هذه الظاهرة باعتبارها تهديداً لقيم العلمانية برمتها، الأمر الذي يستوجب تدخل الدولة بكل ثقلها، وهي ظاهرة ما زالت تشق المؤسسة السياسية والفكرية الفرنسية إلى يومنا هذا، وما زالت تثير معارك ساخنة لا يهدأ لهيبها بعد.

فالعلمانية الفرنسية لا تكتفي بتحرير السياسي من سيطرة الكنيسة بل تراهن على مقارعة الدين عامة وطرده من الفضاء العام لتحل محله "القيم العلمانية الصلبة"، وهنا تحل المدرسة محل الكنيسة في إعادة صوغ الوعي الفردي والجماعي. فقد كتب فردينان بويسون في معرض دفاعه عن مشروعية المدرسة العلمانية بديلاً عن المدرسة الكنسية زمن الجمهورية الثالثة سنة ١٩١٢ ما يلي:

"إن للكنيسة معقوليتها الخاصة، ومن ثم ليس أمام المرء إلا أن يكون معها أو ضدها، كما أن المدرسة العلمانية هي الأخرى ليست شيئاً بلا اسم أو شخوص محددة، وبالتالي على المرء أن يختار بين المدرسة العقلانية أو المدرسة الإكليروسية لأن لا توجد منطقة وسطى بينهما".

والثقافة السياسية الفرنسية - على نحو ما - تشكلت في مبدأ العلمانية ومرادفها الجمهورية وقامت على نزوعات جذرية مدمرة لا تعرف معاني التوسط والوفاق، ويبرز ذلك جلياً من خلال صعود اليعاقبة وتحويلهم الساحة السياسية والثقافية الفرنسية الى ساحة حرب مفتوحة في إطار ما سمي وقتها سنوات الرعب أو ما سماه روبسبيير "إرهاب الحرية"، وحال الرعب هنا لا تعني مجرد حقبة من حقب الثورة الفرنسية - خصوصاً تلك التي تمتد بين

مجازر ايلول (سبتمبر) ١٧٩٢ حتى سقوط روبسبيير في تموز (يوليو) ١٧٩٤ - بقدر ما هي نمط كامل في إدارة الحكم وفي تصور السياسي لازم الثورة، أي نمط الحكم الذي يستدعي القوة والحسم الجذري باسم ادعاءات حداثوية وتنويرية.

وفعلاً كانت مخاوف الفيلسوف الإنكليزي المحافظ ادموند بورك في محلها حينما كتب في وقت مبكر وقبل أن يكتمل مشهد الثورة على صورته النهائية (سنة ١٧٩٠) قائلاً إنه "يتوقع للفرنسيين رحلة طويلة وشاقة في عالم الفوضى وحلكة الظلمة".

ويجب التنبيه هنا إلى أن العلمانية الفرنسية تعتبر حالاً خاصة وفريدة من نوعها حتى مقارنة بالتاريخ السياسي الأوروبي والأميركي، خصوصية تستمد ملامحها العامة من سياقات التجربة الفرنسية ذاتها، فلا ننسى هنا أن هذا الدور المركزي الموكول للدولة الجمهورية ليس إلا استمراراً وتكثيفاً لدور هذه الدولة في صنع الأمة، خلافاً لكثير من البلدان الأوروبية الأخرى التي كانت فيها الدولة استجابة لاحقة لتشكل الأمة، إلى حد القول بأن تاريخ فرنسا الحديث هو بدرجة أولى تاريخ الدولة الصاهرة الصانعة للأمة القومية. وفي بوتقة الصهر هذه احترقت أقليات مذهبية ودينية بلا رحمة تحت شعار "الإخاء والحرية والمساواة"!

فكل ما فعلته الثورة الفرنسية كان تعميق هذه الأبعاد التسلطية المختزنة في التاريخ السياسي الفرنسي، ففرنسا مثلاً حاولت أن ترأب التصدعات التي خلفتها الحروب الدينية للقرن السادس عشر عبر إقامة ملكية مطلقة ومركزية غير مسبوقة، في حين أن الإنكليز حاولوا تجاوز مخلفات الحروب الدينية، وثورتي

١٦٤٠ و١٦٨٨ عبر توسيع سلطة البرلمان والمؤسسات الوسيطة، مع تخفيف وطأة الملكية، ففي الوقت الذي ألغى فيه لويس الرابع عشر اتفاقية نانت سنة ١٦٨٥ (الاتفاقية التي تم بموجبها الاعتراف بحقوق البروتستانت) صادق البرلمان الإنكليزي وبعد أربع سنوات فقط على مرسوم التسامح الديني. وقد يقول البعض إن ما فعلته الثورة الفرنسية هو الضريبة الضرورية لدخول عالم الحداثة السياسية لكن مما يسفه هذه الدعوى قدرة شعوب أخرى كثيرة في العالم الغربي نفسه على نهج مغاير وأكثر هدوءاً وتوازناً، وتقدم التجربة الأميركية مثالاً على ذلك في هذا الصدد، من جهة المكانة المهمة التي يشغلها الدين في الحياة الخاصة، والروح العامة للمجتمع، أو من جهة مستوى التسامح مع الأقليات الدينية والعرقية.

والثابت في كل ذلك أن التجربة الفرنسية التي كانت نتاج ثورة صاخبة وإرث كنسي كاثوليكي ثقيل تمثل الاستثناء لا القاعدة. بل إن النموذج العلماني الفرنسي ولد مأزوماً ومتوتراً منذ البداية بسبب الوهم الذي لازم هذه الثورة، وهو وهم البداية الجذرية والعام الصفر بحيث يخيل لأصحاب الثورات أن بمقدورهم تغيير وجه العالم وإعادة بناء طبيعة إنسانية جديدة، وأنهم خلف بلا سلف وأبناء بلا آباء.

ويبدو أن الكاتبة الألمانية حنة ارندت كانت محقة حينما بينت في معرض مقارناتها بين الثورات الحديثة أن سر نجاح الثورة الأميركية في إقامة حياة مدنية مستقرة وهادئة خلافاً للثورة الفرنسية إنما يعود إلى تخلص الآباء المؤسسين للثورة الأميركية من فكرة القطيعة الجذرية والبداية من صفر، فقد تصور هؤلاء مهمتهم عبارة عن استئناف وإحياء لروما القديمة وأثينا اليونانية

obeikandi.com

الأمر الذي مكّنهم من الإفادة من الخزان التاريخي وتجنب أخطاء ومطبات سابقيهم، وكذلك إقامة علاقة متوازنة بالمخزون الديني المسيحي، في حين أن أقرانهم الفرنسيين أرادوا شن حرب لا هوادة فيها على ما سموه: "مملكة الظلام" فحولوا السياسة تبعاً لذلك إلى ساحة حرب واستقطاب بين الخيارات القاطعة والجذرية.

إن جذور الانحراف الإرهابي الذي لازم الثورة الفرنسية يكمن في تصور رجالاتها للزمن ولحركة التاريخ الذي تقع فيه حادثة الثورة ولعالم السياسة عامة، فقد نظروا إلى الثورة باعتبارها تمزقاً مطلقاً في نسيج الزمن، كما راهنوا على إقامة نظام اجتماعي من الصفر على أنقاض النظام القديم، وهكذا حولوا السياسة من مجال ادارة الممكن إلى حقل تجريبي خيالي للتطلعات والأحلام من خلال تقاطع نزعة بنائية وإرادية لا علاقة لها بالواقع وممكناته.

وتلك من سمات المنهج الفكري المؤدي لرفض الآخر وهو "التأله".

ويواجه النموذج العلماني التدخلي ضربين من الضغط الفكري متأتيين من التقليد الأنغلوسكسوني الذي بدأ يلقي بثقله على الكثير من رجال الفكر والساسة الفرنسيين:

أولا: من جهة التيار الليبرالي الذي يشدد على حيادية الدولة في مجال الثقافة، معتبراً اياه مجرد حكم لا حق له في التدخل في مجال القيم وأنماط حياة الأفراد والجماعات، وقد لعب الجيل الجديد من الليبراليين دوراً حيوياً في تجريد الدولة من ادعاءاتها الشمولية. الأول من خلال التمييز بين حقلي الخير والعدل، فالدولة عندهم تقوم على نشر العدل ولا تدخل في المعايير الأخلاقية والجمالية (الخير - الشر والحسن - القبيح)، والثاني من خلال تبني نظرية الحد

الأدنى من الدولة، وإعطاء أوسع الصلاحيات الممكنة للمجتمع المدني.

أما التيار الثاني فهو ما يسمى المدرسة الجماعتية Communitarianism التي تدافع عن حماية الخصوصيات الثقافية للمجموعات الثقافية والعرقية التي ينصهر داخلها الفرد، مع العمل على كف يد الدولة عن فرض نمطية ثقافية موحدة. وقد تزامن هذا الضغط الفكري مع ضغط واقعي متأت من التعدد الثقافي والديني الذي فرض نفسه على فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، بسبب حركة الهجرة التي جلبت معها تعدداً في أنماط العيش ومسالك التفكير والاعتقاد، ولعل هذا ما حدا ببعض المفكرين الفرنسيين امثال جون بوبيرو للدعوة إلى صوغ ما سمّاه بعقد علماني جديد، ما يجعل الدولة أقل تدخلية وأكثر حيادية في مجال الخيارات الثقافية والأخلاقية.

من الحياد إلى الإلحاد

وقد كان حصاد الثقافة الدهرية التي فرضتها الدولة الفرنسية على المجتمع الانتقال من الحياد إلى الإلحاد وحسب الإحصاءات فإنه في العام ١٩٦٦ أعلن ٨٩ في المئة من الفرنسيين انتماءهم إلى أحد الأديان فيما أكد ١٠ في المئة انهم لا يعتنقون أي دين، وبعد ٣٢ عاماً صارت النسب المئوية على التوالي ٥٥ و ٤٥ في المئة. ويشكل الذين لا دين لهم أكثرية واضحة في المجتمع الفرنسي لدى من هم دون الخمسين من العمر لتبلغ نسبتهم ٦٣ في المئة داخل الفئة العمرية ١٨ ـ ٢٤ سنة. في المختصر ونظراً إلى التطور الطارئ منذ ١٩٩٨ يمكن الاعتبار أن هناك للمرة الأولى منذ قرون عدداً متساوياً - إن لم يكن أكثرية - من الفرنسيين خارج الديانات وداخلها.

وإلى جانب الموقف الإلحادي الواضح ظهرت ألوان طيف أخرى في

المجتمع الفرنسي تعبر عن الرغبة في تشييد معمار ديني لكل شخص أو فئة بما يناسب الرغبة الشخصية كحل وسط بين الإيمان والإلحاد الصريح فحسب دراسة أجريت عام ١٩٩٩ وجد أن من لادين لهم يعتنقون معتقدات دينية على النحو التالي:

٢٣ في المئة ممن لا دين لهم يؤمنون بالله.

٢٦ في المئة منهم يؤمنون بالحياة بعد الموت.

١٢ في المئة يؤمنون بالجنة.

٧ في المئة يؤمنون بجهنم.

١٥ في المئة يؤمنون بالخطيئة.

٢٣ في المئة يؤمنون بالتجسد.

كما أن لهم مواقف متباينة من الطقوس على النحو التالي:

٣٣ في المئة منهم تبدو لهم الاحتفالات الدينية المرتبطة بالولادة على جانب من الأهمية.

٣٩ في المئة تبدو لهم الاحتفالات الدينية المرتبطة بالزواج على جانب من الأهمية.

٤٦ في المئة تبدو لهم الاحتفالات الدينية المرتبطة بالوفاة على جانب من الأهمية.

أما المعتقدات الموازية ذات الطبيعة البدائية (الفأل الحسن وقارئات الحظ والقادرون على شفاء الأمراض أو علم الأبراج) فرغم أن ٤٩ في المئة يرفضونها، بحسب دراسة ١٩٩٨، فان ٣٣ في المئة مترددون و ١٨ في المئة يؤمنون بها(١٨).

الوجه الآخر للثورة: لنتذكر فاندي

وفاندي الفرنسية أول إبادة جماعية في التاريخ الحديث، وتتبع أهميتها الاستثنائية من أن جدل العلاقة بين الإسلام والتنوير وتابعه "الحداثة" مطروح على العقل المسلم منذ ما يقرب من قرنين مترافقا مع مشروعات متعددة لبناء "دول حديثة" على النمط الغربي وتاليا لمشروعات تحديث داخل الدولة العثمانية لم يكن حظها من النجاح أوفر. ويعد المشروع التنويري الأوروبي الذي دشنته الثورة الفرنسية بشعارها الثلاثي الشهير: إخاء، حرية، مساواة، النموذج الذي يفضل العلمانيون العرب الإشارة إليه والإحالة عليه بل التبشير به طريقا للنهوض لا بديل عنه، مشيعين جوا من الخوف من "الدين" عموما عبر التركيز المبالغ فيه أحيانا على الصراعات الدينية والمذهبية التي شهدها الغرب في العصور الوسطى ومفتتح العصر الحديث بوصفها دليلا قاطعا على أن حضور "الدين" في ساحة الحياة العامة معناه حتما: الدم!.

ولعقود بذل كثير من المثقفين الذين خاضوا معركة الهوية في مواجهة هذا المشروع التغريبي جهودا لتحليل بنيته وكشف نقائصه وهو جهد كان له أثر كبير في بلورة موقف ناقد بل رافض لهذا النموذج إطارا للنهوض، غير أن ما أحسب أنه يمكن أن يكون إضافة هو الكشف عن التاريخ الدموي لحركة التنوير الأوروبية وبخاصة في مهدها فرنسا عبر الكشف عن أول جريمة إبادة جماعية في التاريخ الحديث شهدتها فرنسا في السنوات الأولى من عمر الثورة.

ومنذ بدأ المشروع الاستعماري الفرنسي يتجه جنوبا صوب مصر (١٧٩٨) ثم الجزائر (١٨٣٠) والشعار المرفوع فرنسيا هو "تمدين الشعوب المتخلفة"، وقد أدرك شيخ جزائري الكذب الذي ينطوي عليه الشعار فتساءل متصنعا

Orientalkanada.com

السذاجة: "إذا كانوا قد جاءوا لتمديننا، فلماذا أحضروا معهم كل هذا البـــارود؟ ". وقد كانت الإجابة إشارة في عبارات قليلة أوردها المفكر الإسلامي المعروف الدكتور عبد الوهاب المسيري في كتابه "الصهيونية والنازية ونهايــة التــاريخ" عن جريمة إبادة جماعية ارتكبتها قوات الثورة الفرنسية ضد سكان منطقة فرنسية تسمى فاندي وأنه قرأ عنها سطورا قليلة نقلا عن ضابط شارك فيها وسار في دماء الضحايا التي بلغت ركبتي جواده.

وبدأت محاولات بحث للحصول على أية معلومات بالعربية عن الجريمة فلم أجد وكذلك الحال على شبكة الانترنت (باستثناء إشارات في مقالات لكاتب هذه السطور لا تتجاوز ما ذكره الدكتور المسيري) وبدأت البحث بالإنجليزية فوجدت ما يشيب لهوله الولدان.

الشهادة الأولى لكاتبة فرنسية هي صوفي ماسون، وتقول في شهادتها: "في بداية عام ١٧٩٤ قرر الروبيسبيريون (أتباع الزعيم روبسبيير) إبادة الفنديين (الفانديين) حتى آخر رجل وامرأة وطفل. وإذا كانت الثورة الفرنسية أول أيديولوجية حديثة فــإن فنديـــه (فاندي) تكون مذابح بدائية رهيبة تعد من أعمال الإبادة الجماعيـــة. حقيقـــة أن فانـــدي (فنديه) ثارت كانت معروفة للكافة. وهو ما يدعو للتساؤل بشأن طبيعة ثورتها التي شارك فيها طبقتها الوسطى وزعماؤها. والجمهورية الفرنسية لم تبدأ إلا حديثا جدا في الاعتـــراف بالرعب الذي يعنيه أن تكون فاندي (فنديه) أول جريمة إبادة جماعية في العصر الحديث".

وتكمل صوفي مشيرة إلى التحديث الذي جاءت به الثورة الفرنسية: "عندما جاء نمط حياة جديد في البداية لم يفعلوا شيئا، ولكن سرعان ما فهمـــوا مـــا تعنيـــه هـــذه الهجمة... انتهاك أراضيهم وعقائدهم بل أرواحهم وما كان يمكن أن يقفوا وهم يرون ذلك، سيقاومون للأبد إن لزم الأمر. القادمون بدورهم كانوا يعتقدون أنهم أحضروا معهم التقدم،

obeikandi.com

التنوير، الفكاك من أسر الخرافات، الحرية، الإخاء، والمساواة. وسوف يدخلون هؤلاء البدائيين العصور الحديثة، حتى لو كلفهم هذا بضع معارك.... لكن هذا لم يكن سهلا فالناس قاوموا بشراسة... ولكن سرعان ما كان هناك نقص في الرجال مقابل تقنيات متفوقة ولم تكن هناك ثقافة عسكرية إذ كانوا يعيشون لزمن طويل في حالة سلم. وعندما اكتشف جنود الثورة ذلك عندما هزموا الناس أوحى لهم هذا بأكثر الأفكار وحشية، فهذا التسابق للموت يمكن استغلاله، وهكذا بدأت الإبادة الجماعية".

الإبادة المنظمة - حسب شهادة صوفي - "بدأت من أعلى القيادات وجرى تنفيذها بسعادة في أدنى المستويات، على الأقل ٣٠٠ ألف إنسان أبيدوا بلا رحمة آنذاك وبعض الجنود الذين رفضوا القيام بالمهمة اغتيلوا ماديا أو معنويا. لكن الناس ظلوا يقاومون فبعضهم اختبأوا في الغابات ونصبوا الأكمنة وقد حاربوا ببسالة مثالية لكنهم عند القبض عليهم كانوا يذبحون كالخنازير. وكان الإعدام مصير كل القادة إما شنقا أو ذبحا أو رميا بالرصاص بل لم يترك بعضهم لينام في قبره في سلام. جثة آخر قائد تم إعدامه قطعت ووزعت على العلماء أما رأسه فتم "تمليحها" في إناء زجاجي. أما مخه فتمت دراسته لمعرفة أين توجد بذور العصيان عند البدائيين. كان هذا منذ مائتي عام لكن في الحاضر احتفل الجمهوريون بالذكرى المائتين دون إشارة لـ "الموت" ودون إشارة للإبادة الجماعية، إنهم الضحايا أنفسهم هم الذين تذكروا".

"والآن هناك اسم لهذه الثقافة التي قاومت وهذا الاسم هو فاندي (فندييه)... إنها قصة التاريخ الفظيع لأهل غرب فرنسا فاندي (فندييه) وبريتاني، فأثناء الثورة الفرنسية حدثت قصة فيها البطولي والبشع تخلفت من رماد فاندي (فندييه). وهي قصة كانت حتى وقت قريب موضوع قمع وإنكار وبتوالي الأكاذيب أصبح كثير من الفرنسيين لا يعرفون عنها شيئا، وحدهم أهل فاندي (فندييه) وبريتاني احتفظوا بها حية، ولم ينسوها أبدا. ومؤخرا

وحسب خلال السنوات القليلة الماضية أقيمت نصب تذكارية للضحايا أقامتها الحكومة المحلية وليس الحكومة المركزية. وحديثا جدا بدأت الجمهورية الفرنسية تتحدث عن احتمال أن يكون هذا الترويع أول جريمة إبادة جماعية في التاريخ".

""لا يبقى رجل حيا"، "وحدها الذئاب ما يجب أن يبقى في أرضهم"، "نار، دم، موت، هو ما نحتاجه لحماية الحرية"، "ممتلكاتهم ومعتقداتهم المتعصبة يجب تحطيمهما"، تلك كانت بعض الكلمات التي وردت في مؤتمرهم عن فاندي. وأطلق علماؤهم الخيال لكل الأفكار الجديدة، تسميم الدقيق والخمر وموارد المياه.... البحث عن طرق لحرق أكبر عدد من الناس في فرن كبير يكون قادرة على إذابة شحومهم بكفاءة".

"واحد من الجنرالات الجمهوريين (Carrier)كان مستهزئا بهذه الأبحاث، فهذه الطرق "الحديثة" سوف تستغرق وقتا طويلا. الأفضل أن نستخدم طريقة أكثر عراقة (فيها قداسة القدم) للإبادة: قداس تعميد لرجال ونساء وأطفال عراة والأفضل تكبيلهم جماعيا فيما أسميه "زواج جمهوري" وفي قوارب نشيدها لذلك ويتم جرها إلى منتصف نهر اللوار، وعندئذ يبدأ "قداس" طعن بالحراب للرجال والنساء والأطفال، تحطيم رؤوس الصغار بضربها بالجدران، مذبحة بإطلاق قذائف المدفعية على المكبلين، أقصى أشكال التعذيب المروع، وإحراق ونهب القرى والمدن والكنائس. ولم يكن هناك حتّى أيّ ادعاء أو تظاهر بالتميّز بين المقاتلين والمدنيّين وحتى الآن سجلات الجيش في فينسينيس تحكي القصة الباردة، القبيحة، وقد تكررت مراراً وتكراراً في قرننا الفظيع، الجنرالات يتحدثون ببرود عن "الأهداف المنجزة"، "الإبادة بلطف"، إبادة جماعية بشكل منظم ومستمر وبصرامة.

وقد تحولت فاندي إلى رمز لأهم الانتقادات التي تحفل الدراسات الإنسانية المعاصرة للثورة الفرنسية ومثل عصر التنوير كطريق لإقامة مجتمعات متحررة تعددية متقدمة وفي المئوية الثانية كانت فرنسا على موعد مع كتاب

أثار لسنوات تلت صدروه جدلا كبيرا جدا في الثقافة الأوروبية، ففي كتابه: "إبادة جماعية فرنسية" لرينالد سيشر تناول كارثة فاندي مستعرضا المقدمات والأحداث والدلالات.

فبحلول ١٧٩٣ كانت فرنسا الثورية في حالة حرب مع النمسا، بروسيا، وإسبانيا، وكانت بريطانيا تَعدُّ حصارا بحريا. وردت الجمعية الوطنية على هذه الحالة العسكريةِ اليائسةِ بالأَمْرِ بفرض ضريبة تجنيد ٣٠٠,٠٠٠ مجنَّدِ في غربِ فرنسا وكانت هذه الضَريبة الذَريعةُ للتَمرّدِ والحرب الأهليةِ المُسَلَّحةِ الهائلة التي عرفت باسم هذه المنطقة فاندي (فنديه). العصيان المسلح تسبب في خسائرِ بشرية فظيعةِ حتى هزم في ١٧٩٤ تاركا ندوبا دائمة في المجتمع والسياسة الفرنسيين. وما زال المؤرخون منقسمين، المدرسة التقليدية من مؤرخي الجمهورية ترى القمع عملا مؤسفا لكن لا مفر منه لمواجهة عمل عسكري شكل "طعنة في الظهر" في لحظة كانت الثورة فيها تمر بأخطر أزمة، خلال السنوات العشرين الماضية أصبح القمع يصور بوصفه عملا شريرا أكثر من ذي قبل.

بينما كان هناك محاولات للربط بينها وبين بالإرهاب الأيديولوجي والحكم الشمولي المرعب في القرن العشرين. في ١٩٨٣ صلةِ مختلفةِ بالأحرى قَدْ افترضتْ مِن قِبل بيري تشونو: "فترة العاقبة يُمكنُ اليوم فقط اعتبارها الفعل المؤسس لسلسلةِ طويلةِ ودمويةِ تَمتدُّ من ١٧٩٢ إلى الوقت الحالي من الإبادة الجماعية الفرنسية في الغربِ الكاثوليكي إلى الجولاج السّوفيتي. إلى الدمارِ الذي سَبّبته الثَورةِ الثَقافيةِ الصِّينيةِ إلى إبادة جماعيةِ الخمير الحمر في كمبوديا". كَانتْ أطروحة تشونو أن صلة الثورة بالاستبداد كَانتْ عقائدية أكدتها الممارسة الثورية ممثلة في القمع الإبادي في

obeikandi.com

فاندي (فنديه) في ٩٤/ ١٧٩٣. الأطروحة قدمها طالب دكتوراه هو رينالد سيشر في ١٩٨٥.

كانت أطروحة سيشير أنْ يصدر كتابين أحدهما كَانَ دراسة قرية سيشر نفسه (Mer - Basse - Chapelle La) لا تشابيلي باسي مير؛ الآخر، الدّراسة الأوسع بالعنوانِ المذهلِ "إبادة جماعية فرنسية".

وليس هناك شكُ، بالطبع، في أن فاندي (فنديه) تكبدت خسائر بشرية فادحة، تقديرات حديثة تَراوحتْ بين افتراض تشونو الذي يقدرهم بـ ٥٠٠,٠٠٠ قتيل من المتمرّدين إلى تخمينِ جين كلمينت مارتن بحدود ٢٥٠,٠٠٠ من المتمردين و٢٠٠,٠٠٠ من الجمهوريين. وافتراض سيشر أن هذا الحجم من القَتْلِ إبادة جماعيةِ استنادا لسلسلةِ من التّصريحاتِ مِن قِبل الموظفين الثّوريين وقادةِ الجيشِ. في ١ أكتوبرِ ١٧٩٣، وقد صَرّحَ "المجمع المقدس" للجيشِ المرسل إلى الغربِ:

"يا جنود الحريةِ

إن لصوص فاندي (فنديه) يَجِبُ أنْ يبادوا

جنود الأمةِ يطلبون ذلك

نفاد صبر الفرنسيين يفرض ذلك

شجاعتهم يَجِبُ أنْ تُتم ذلك... "

تصريحات متوالية لضبّاطِ الجيشِ كَانتْ أكثر صراحة وحدّة، مثل بيوفورت، الذي تمنى في ينايرِ ١٧٩٤ "تطهير أرض الحرية تماما من هذا الجنس المَلْعُونِ".

ويلاحظ هنا أنه للمرة الأولى في التاريخ الحديث يتبلور فكرة "التخلص من الآخر"!

وحسب سيشر فإن "هذا الانتقام لَيسَ هو المخيفَ فهي أفْعالَ حتمية حَدثَت في حرارةِ المعركةِ في حربٍ طويلةٍ وشنيعةٍ، لكن في الواقع حدثت مذابح مُخَطَّطــةَ مُنظَّمــةَ، ومبيّتــة ارتكبتْ عمداً، وكَانتْ هائلةَ ومنظَّم، بالنّيةِ الواعيةِ والواضحةِ لتحْطيمِ دين وإبادة واضحة المعالم لكل الناس: النِساء والأطفال أولا، بهدف استئصال "الجنس الملعون"، ويهدف سيشر ببساطة لإثبات أن النظام الثوري مثل النّظامِ النّازي كلاهما كان إباديا".

والمفاجأة هنا أن من جعلوا الثورة الفرنسية فاصلا بين عصرين وبداية دخول "الحداثة" لم يشيروا إلى أنه كانت أيضا بداية دخول عصر المقابر الجماعية!

فقد حفرت ذكريات هذه المذبحة الشنيعةِ بعمق في الذاكرتين الفردية والجماعية في الغرب. فمثلا، اكتشاف مقبرة جماعية كتلِ العظامِ في لي لوس (Lucs Les) مِن قِبل الخوري الأبرشي في ١٨٦٠ التي اكتشفها كاهن الأبرشية عام ١٨٦٠ نتج عنها أسطورة (Vendée" the of "Bethlehem the) " وطبقاً لها فإن ٥٦٤ امرأة و١٠٧ طفل والعديد من الرّجال ذُبِحوا يوم واحد هو ٢٨ فبرايرِ ١٧٩٤.

حرية.. إخاء... ووحشية

وفي إطار المراجعة ومع تصاعد الأعمال الإرهابية التي تلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت هناك كتابات غربية شديدة الأهمية تحاول تقصي العلاقة بين الإرهاب كشكل من أشكال الاستباحة وبين ثقافة "رفض الآخر" كتربة خصبة لثقافة الاستباحة، ومن هذه الدراسات المهمة كتاب

"الإرهاب: حرب أهلية في الثورة الفرنسية" للمؤرخ البريطاني دافيد أندرس.

وحسب أندرس فإنه في العقود القليلة الماضية، وخصوصاً منذ ١١ سبتمبر، أصبحت كلمة "إرهاب" تستخدم بشكل مفرط. اليوم، غالبا عند استخدامه تقفز للذهن صور متعصبين متلحين يحضرون "الرايسين" في شمال لندن، ومن المفيد أن نذكر بأنه أصلا يعني شيئا مختلفا جدا. الإرهاب في الوعي الحديث استعمل للمرة الأولى لوصف الطرق الدامية والقسرية التي استعملتها الحكومة الجمهورية الفرنسية بين ١٧٩٣، ١٧٩٤ لفرض عقيدتها على بلد كان غالبا عنيدا. الإرهابيون الأوائل كانوا رجالا مثل روبسبير، سان جوس، ومارات، الذين خططوا وطبقوا هذه السياسة المخيفة. الإرهاب في التصور الأولي لم يكن سلاحا لمواجهة الحكومات، بل بوصفه الأداة النهائية في يدها، وهو في الشكل الثاني، سواء في ١٧٩٠ في فرنسا، أو ثلاثينات القرن العشرين في روسيا أو في سبعينات القرن نفسه في كمبوديا، كان دائما القاتل الأبشع.

الأعمال الأكثر أهمية عن الإرهاب الفرنسي تمت خلال السنوات الماضية على يد مؤرخين فرنسيين وبريطانيين وأمريكيين، وهناك الآن حاجة لسرد هذا في تاريخ قصصي يسهل وصوله لجمهور أوسع. وكَمَا أنه يخلف عددا كبيرا من جثث الضحايا، يُحرّكُ الإرهابَ عواطفَ عميقةً.

ما يكشف عنه الكتاب بشكل واضح الوضع الرهيب الذي وجدت فرنسا نفسها فيه في منتصف طريق الثورة. فمع صيف ١٧٩٢، رأس الدولة، الملك لويس السّادس عشر، مفتقرا للثقة تماما، والبلاد زلت قدمها لحرب كارثية مَع النمسا وبروسيا وسرعان ما بدت العاصمة نفسها شبه مهددة. مواجهين بهذا المشهد الرهيب، قام متطرفو باريس بعمل حاسم ووحشي: الحكم الملكي أُسقطَ

العاشر من أغسطس، وأطلقت عملية تحفيز هائل لتسجيل المتطوعين للجيش، تم إيقاف الغزو الأجنبي عند فالمي في العشرين من سبتمبر، واليوم التالي أعلنت أول جمهوريات فرنسا الخمس.

هذا الإنجاز الوطني العظيم، مهما تم الاحتفال به في عدد لا حصر له من كتب النصوص المدرسة الفرنسية، كان له في الواقع جانب مُظلم جداً. في اللحظة نفسها، كان المتطوعون يزحفون للأمام وتم إقناع الحشد الباريسي بأن سجون العاصمة تضم "طابورا خامسا" من أعداء الثورة الخطرين، واقتحمت السجون وذبح ١٥٠٠ نزيل في مذبحة سبتمبر "سيئة السمعة".

بهذا الحدث التمهيدي "الجماهيري"، الإرهاب "الرسمي" أخذ ما يقرب من سنة أخرى ليبدأ. وثانية، كان مرحبا به بسبب سوء الأوضاع العسكرية على جبهات القتال، في هذا الوقت تضافر هذا مع تزايد المعاداة للحكومة في ليون ومارسيليا وتولون، وقبل كل هذا، وقبل كل شيء، في فاندي (فندييه) في غرب فرنسا، رَد الدولة كان التخلي التام عن القانون: سجن أي شخص يشتبه في تعاطفه مع الثورة المضادة - ضمن ذلك النبلاء السابقون بغض النظر عن العمر أو الجنس - تقرر بموجب "قانون الاشتباه" في سبتمبر ١٧٩٣، وتبع ذلك حرمان المتهمين من حقوقهم كافة في يونيو ١٧٩٤ وبهذه الوسائل الجبانة تم تقديم ٣٠,٠٠٠ شخصَ تقريبا لمحاكم أرسلتهم للمقصلةِ في "إرهاب قضائي".

ما هو معروف على نحو أضيق من هذا لكن أكثر دموية بكثير كان القمع الوحشي للتمردات الإقليمية. ما حدث في فاندي (فندييه) كان أقرب للإبادة الجماعية، المسئولون الحكوميون استعملوا لغة الإبادة بشكل علني، وربما مات ربع مليون شخص. تبرير هذا الرعب شكل دائما مشكلة رئيسة للمؤرخين، وقد

openkandle.com

استجابوا لـه بطرق مختلفة. بالنسبة للكثيرين، الإرهاب فظيع أينما كان، وقد كان مجرد رد فعل للظروف القصوى: للتفكك في الداخل والحرب من الخارج.

الاقتراب (المقاربة) الظرفي قد يفسر بعضَ - لكن لا يُمْكِنُه أبداً تَوضيح كُل - الإرهاب. بقراءة خطب روبسبيير وسان جوس، يصبح المرء مدركا أنه بالنسبة لهم ولزملائهم، الأزمة الثورية لم تكن ببساطة اختبارا يتغلبون عليه، بل فرصة فريدة لخَلْق مجتمع جديد، مدينة سماوية مستندة على تصاميم جين جاك روسو. ودعامتاه الرئيستان ستكونان: الفضيلة والإرهاب - وبعبارة روبسبير الشريرة "الفضيلة بلا إرهاب قاتلة، الإرهاب بلا فضيلة عاجز".

قبل كل شيء، كانت هذه الرؤية تمجد "الفضلاء"، وتنزع الصفات الإنسانية عن أي شخص يتم إدراكه بوصفه "عدوهم"، وتكرس مصادرَ لم يسبق لها مثيلَ لإبادة مثل هؤلاء الأعداء، صحيح أن الصوت لم يكن تام الوضوح، والنتائج كانت في أغلب الأحيان عشوائيةُ، لكن المرء يمكنه التعرف عليها كأول صوت حقيقي للاستبداد الحديث.

وهنا النواة الصبية لثقافة "رفض الآخر" في التاريخ الحديث وذلك من خلال نزعه من سياقه الإنساني واختصاره في صفة واحدة: "العدو".

القصة التي يرويها ديفيد أندرس عن انحدار الثورة الفرنسية من البدايات المثالية إلى الدولة البوليسية، قصة مظلمة ومحبطة بشكل مفرط. وبسبب طبيعتها الحادة فإن القليل من الضوء يخترق الستر المسدلة عليها. واحدة من القلة التي تفعل ذلك سيدات سان فينسنت المهيبات على اللوار الأعلى. ذات يوم في ذروة الإرهاب، جمع كل السكان في الكنيسة للاستماع للمسؤولِ المحليِّ، عضو نادي اليعاقبة الثوري المهيمن، وهو يبسط مبادئ الدينِ المدني الجديدِ

الذي أمر به روبسبير للتو. وما إن بَدأ حتى تحركت كل النساء ليصنعن دائرة وأعطينه ظهورهن واعترضن تعرية مؤخراتهن!.

بينما يعلق أندرس: "دعوة اليعاقبة لم يكن لها من رد إلا مثل هذه المناورة".

وفي مصارحة مهمة كتب الناقد البريطاني روث سكيور منبها لأهمية الكتاب في إنصاف "الآخر" ونقد "الذات"، فأندرس يُواجهُ مباشرة شبهة أنه لا شيء سوى "سيل منساب مِنْ الكلمات" للربط بين حربنا المُعاصرة على الإرهابِ وبين الإرهابِ سيئ سمعةِ الذي عصف بفرنسا في ١٧٩٣، قذف الآلاف للموت تحت المقصلة. وهو محق إذ يرفضُ مثل هذا الشَكّ، مصرا على أن الماضي يخبر وكذلك يُنيرُ الحاضر - وإهمالنا إياه يعرضنا الدرس المأساوي للثورةِ الفرنسيةِ الذي يُؤكّدُ أندرس أن هذا وقته الصحيح. وهو "أننا يَجِبُ ألا نفترض أننا مستقيمون، وأعداؤنا أشرار" - احترام حقوقِ الإنسان العالميةِ التي قاتل الثوريون في فرنسا وأمريكا بصعوبة جداً لتأسيسها في القرن الثامن عشر لا يجوز التخلي عنها أبدا.

ويرى سكيور أن فاندي هي قصّة كيف أن المشروع الثوري لبناء نظام حكم مستند على حقوق الإنسان انتهى في فرنسا إلى خطأ كارثي له تأثير سحري لا نهائي. "الكلمات التي قلناها لن تنسى أبدا" قالها القديس جوست أحد الثوريينَ الأكثر وحشيةً، على منبرِ الخطابة - وكَانَ ما قاله صحيحا. في الطريق إلى إعدامه، في السابعة والعشرين من عمره، يقال إنه أشارَ إلى إعلانِ حقوقِ الإنسان المعلق على حائطِ لجنةِ السلامة العامّةِ، وقالَ: "مع ذلك، أنا فعلت ذلك" لكن عظمةَ مثل هذه الإنجازِ الباقي تلقي عليه الأعمال الوحشية التي تلته ظلالا قاتمة.

القديس جوست، كان دائما مع صديقه روبسبيير، أحد مهندسي الإرهاب يدافع عنه كشكل لـ "عدالة صلبة ناجزة" والطريق الوحيد لحماية الثورة من أعدائها. وقد شرع هؤلاء الرجال "قانون الاشتباه" الفظيع، الذي نظم كل النبلاء السابقين والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون إثبات ولائهم للجمهورية، وأي شخص آخر عبر عن معارضته للثورة. وفي السجن، كان طريقه إلى المقصلة قصيرا.

وأندرس يضع هذه الأحداثِ المريعةِ ضمن سياق صراعات الأهلية والأجنبية التي كَانتْ بقسوة تمزق الجمهورية الوليدة إرباً. دَخلتْ فرنسا الثورة حربا مع النمسا في أبريل ١٧٩٢، قبل شهور فقط انهيار الحكم الملكي وإعدام لويس السادس عشر لاحقا؛ وفيما بعد انخرطت معظم بقية أوروبا - مدفوعة باشمئزازها من مشهد إعدام الملك. في هذه الأثناء، كانت قوات الثورة المضادة، بتشجيع كهنة عنيدين، كانت تتجذر في الأقاليم. وعلى خلفية المناخ الذي حاصر باريس من الخوف والذعر وجنون الارتياب المتزايد انقسم الثوريون على أنفسهم. وكانت للفئات المختلفة تصورات مختلفة عما يجب أن تكون عليه الجمهورية الجديدة، وأصبحت خلافاتهم قتالاً حتى الموت. وانتصر روبسبيير على رأس حزب يدعو لمعاداة المسيحية لكن عندما حاول تأسيس دينه الخاص عبادة الكائن الأسمى بوصفه دينا رسميا جديدا أكثر نقاء، لطخ أوراق عتماده الجمهورية: "انظر إلى التافه؛ أنه غير مكتف بأن يكون سيدا، هو يجب أن يكون إلها" هكذا علق ساخرا شخص ما بين الجمهور المحتشد.

كانت ثقافة "رفض الآخر" إذن مرتبطة بمؤسسي الثورية المعادية للأديان السماوية!

انتهى الإرهاب رسميا بسقوط وإعدام، روبسبيير، القديس جوست وأقرب معاونيهم في يوم دافئ في يوليو ١٧٩٤. لكن انتقام أعداء الإرهابيين الذي أعقبه كان داميا ووحشيا بحكم حقه الشخصي. إنهاء الإرهاب لم يكن بسيطا كقتل الإرهابيين، وستستغرق فرنسا سنوات فرنسا للعودة لشكل مستقر من الحكم.

ولم تكن الكارثة فقط في فاندي التي اتهمت بالعصيان ودفعت في الحقيقة ثم تمسكها بمسيحيتها رافضة عبادة الكائن الأسمى بل كانت عمليات قهر الآخر وصولا إلى إبادته تقع بوحشية في قلب باريس، ففي الثالث من سبتمبر ١٧٩٢، ماري تيريز لويز دي كاريجنان سافوي أميرة لامبال، صديقة الملكة ماري أنطوانيت، تم أخذها خارج سجن لا فورس الباريسي وقطع رأسها على يد الغوغاء؛ ثم تم عرض الرأس في الشوارع مثبتا على حربة.

للأيام الثلاثة التالية، وفي جميع أنحاء العاصمة، بين ١٢٠٠ و١٥٠٠ مِنْ سجناءِ الجمهورية الفرنسية الجديدةِ قُتِلوا بقسوة بعد جلسات محاكمة قصيرة في "محاكم" متحيزة متعطشة للدماء، في ما أصبحَ يعرف باسم "مذابح سبتمبر". وأولئك الذين كانوا مرعوبين من الإرهاب بحيث لم يستطيعوا الرد على أسئلة المحكمة أو لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم دون مساعدة تم تجريدهم من أشيائهم الثمينة ودفعهم خارج الباب ليذبحهم جلادوهم حتى الموت قبل حيث جلاديهم ببساطة ضربوهم حتى الموت، قبل قذفهم في حفر الجير الحي.

رغم ذلك هل كان الإرهاب (تلك الفترة من الثورة الفرنسية بين ١٧٩٢ - ١٧٩٤ عندما سيطرت المقصلة على راية الحرية بوصفها العلامة المميزة للفترة) انحرافا عن الثورة، أو التعبير الأكثر حقيقيةً والأكثر صدقا عنها؟ أكانت

هاتان السنتان كثورة داخل الثورة نتيجة شبه حتمية لمحاولة مأساوية لإحداث تغيير ضخم، اقتصادي وسياسي واجتماعي في مجتمع أوروبي عريق مثل النظام القديم؟

ولا يمكن إنكار أن لويس السّادس عشر أساءَ إدارة الثورة بالكامل، خصوصاً عندما حاولَ الهُرُوب من البلاد في يونيو ١٧٩١، لَكنّه لا يُمكن أنْ يُلامَ على رعب الإرهاب الذي ارتكبه الغوغاء أعداؤه، (الذين تم تصويرهم دائما بوصفهم "حشودا" من الناس العاملين العاديينِ وعوائلهم). ماكسيمليان روبسبيير ومعاونوه اليعاقبة مَا كَانوا رد فعل بسيط لحماقات البوربون السياسية بل كانوا هم كَانوا يُحاولونَ بشكل نشيط أنْ يَخْلقوا ما سماه "فضيلة" مزيَةً، ذاكرا: "التخويف بدون فضيلة كارثي؛ الفضيلة بدون تخويف ضعيفة".

كان هذا لبناء عالم جديد شجاع وصنع قطيعة حاسمة مع ما قبل ١٧٨٩، حيث ألغتْ الثورةَ الأحدَ والمسيحيةَ، خالقة بدلا من ذلك تقويما جديدا يبدأ من السنة "صفر". ودينا رسميا جديدا. وهي أعدمت الكثير جدا من الناس لأن هذا كان طريق تطهير وتنقية فرنسا، وصبغها بالفضيلة. لذا فإن تركيز أندرس على الخوف من الثورة المضادة هو نصْف الجواب وحسب، وهو النصف الأقل أهمية. الثوريون كنتيجة لجنون الريبة بل مَا كَانوا يَقْتلونَ خارج الذُعْرِ، لكن لأن اعتقدوا بأنهم كانوا يصنعون عالما أفضل.

وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام الفكرة الشيطانية التي أثمرتها ثقافة "رفض الآخر" وهي أن "التخلص" من الآخر طريق لبناء عالم أفضل.

كوميونة باريس:

وهكذا تحول الثوار إلى رمز للرعب ففي واقعة مثيرة لم يكن لدى المراهق

رامبو إلا أن يكتب في مقال مدرسي عام ١٨٧٠ "مـارات وروبسـبيير، الشـباب ينتظرونكما" لتَرويع معلمي إمبراطوريته الثانية. هذان الرجلان كانا، مع ذلك، المصممين الأساسيين (مع القديس جوست) للإرهاب الدامي الذي انحدرت إليه المثاليات العالية للثورة الفرنسية قبل حوالي ٨٠ عاما، والذي كانت كوميونة باريس في ١٨٧٠ تهدد بتكرارها. بعد سَنوات قليلة، الجمهورية الثالثة الجديدة كَانتْ تَستعمل شعارات رفعها كل من مارات وروبسبير كشعاره: "حريَّة، مساواة، أخوة"، الجمهورية الخامسة الحالية ما زالت تبقي عليها.

رغم ذلك باسم هذه المقولات، ومقولات فولتير وتنوير روسو أعدم رسميا حوالي ١٧,٠٠٠ مواطن فرنسي اعتقلوا وحوكموا وسيقوا للموت في دفعات - في أغلب الأحيان في يوم واحد - وربما رأوا عائلاتهم بالكامل قبل نصب منصة محاكمتهم يرسلون قتلى غارقين في دمائهم. لا عجب أن الروح المتسامحة لفرنسا لم تصالح نفسها مع هذه اللحظة التاريخية من الجحيم: إنها لم تزل تغني برقة نشيدها، المارسيليز (النشيد الوطني الفرنسي) المرعب. وبين كل مفردات الرعب التي حفل بها معجم هذه الفترة كانت لجنة تنفرد بوقع خاص هذه اللجنة الشريرة "لجنة السلامة العامة" التي حسمت المنافسة اعتمادا على المحاكم الثورية التي حَرمت الدفاع من حق الاستعانة بشهود أو دليل مؤكد. ورغم الكلام الرنان عن نور العقل، وتلك بدعة آخر القرن الثامن عشر المبهجة للوجدان، وقد تجلت قمة بشاعتها في القاضي فوكيه تينفيل المتعصب بشكل مميت، فيكفي "شعوره" ليحدد ما إذا كنت تستحق الإعدام، وكل هذا باسم ما أطلق عليه القديس جوست "المصلحة العامة".

لكن هذا كَانَ الإرهابَ "المتأخَرَ"، عندما التهمت ماكينة القتل أولئك الذين

"انتقدوا أتباع روبيسبير حتى تلميحــا" وفـي الواقـع كل واحد تحرك. بَدأ الإرهابُ تقريباً قبل ذلك بعامين في ٥ سبتمبر ١٧٩٣، في يوم أطلق كسوف كبير شفقا أحمر مخيفا. في صراعها من أجل البقاء ضد أعدائها في الداخل والخارج، رَأت الجمهورية الآن مظاهرة شعبية هائلة ضد ندرة الخبز، الذي استولى عليه المتجمهرون العراة بالقوة. الجمعية الوطنية (الكائنة في قصر التويلري سابقا) حوصرت. وأعلن موفد اليعاقبة: "هذا وقت تُعمِل فيه المساواة منجلها في كل الرؤوس. لقد حان وقت ترويع كُلّ المتآمرين. ولذا فإن المشرعين وضعوا الإرهاب على جدول أعمال اليوم".

ويرسم أندرس صورة مرعبة للمأساة، فالسجناءُ المنكوبون مرنوا أنفسهم بكل ذرة في أجسامهم حتى لا يصدمهم مواجهته عندما تحين لحظته. أفراد العائلة المالكة كانوا، للأسف، أبطالا بارزين قبل المذبحة الوطنية. وقتلهم - وضمنهم وريث العرش ذو الثمانية أعوام، الفقير لويس تشارلز، الذي ذوى وحيدا في زنزانة قذرة مليئة بالفئران وكذلك إحلال **الكائن الأسمى** أو محل إله الكاثوليك، الخالق الذي كان يؤمن به "الفاضل" المستقيم روبسبيير.

وهناك بعد آخر عند تناول فاندي هو وضعها في سياق تاريخ تطور ظاهرة إبادة الآخر، فهناك تقنيتان أساسيتان لتنفيذ القتل الجماعي إحداهما أن تثير ثائرة الغوغاء لارتكاب مجزرةٍ عشوائية، بينما الأسلوب الأكثر تعقيدا يستخدم الأيديولوجيا لتجريد الناس من إنسانيتهم والمحاكم لإضفاء مشروعية على إعدامهم والتاريخ الإنساني مليء بكلا الأسلوبين. وحديثا جداً، استخدم الأسلوب القديم لتنفيذ الإبادة الجماعيةِ في رواندا؛ بينما الأحدث كان مفضلا خصوصا من ستالين. لكنها الثورة الفرنسية التي اخترعت التقنية التي تبنتها بعد ذلك كل

الأنظمة الغاصبة للسلطة من سان بطرسبرج ١٩١٧ إلى سانتياغو السبعينات؛ إرهاب غوغاء للاستيلاء على السلطة، وإرهاب بيروقراطي لدعمه.

وهذا الإرهاب البيروقراطي شيء قريب من حملات التطهير الأيديولوجي فعند إعدام لويس السادس عشر لم يكن هناك على الأرض سلطة عليا سوى جمعية وطنية منتحبة من الناس بأغلبية هزيلة وهكذا اخترعت فكرة "أعداء الشعب". ووجدت الفكرة ساقين تمشي عليهما، فمثلا لينين وتروتسكي تعلما من الفرنسيين اغتصاب السلطة عبر رفع شعارات بلاغية وتعطيل الديموقراطية وفرض الإرهاب. وهم ادعوا الحق في التعبير عن الجماهير الصامتة الأمية وبعد ذلك التخلص من الأعداء نيابة عنهم، وهو منطق يربط بين روبسبير وبول بوت مرورا بستالين.

والطريقَ بسيطٌ: خذ موقعك المتميز وعزز جماهيريتك وإذا أحبطك رد فعل المعارضة تقنع نفسك بأنك نخبة طليعية وبأن معارضيك يفتقرون للاستنارة السياسية والنتيجة بناء على ذلك أن معارضيك أعداء لمبادئ الثورة ثم ابدأ في إعدام الناس. وعلى العكس، إرهاب فرنسا العظيم، لم ينفصل أبدا عن جذوره في حركة التنوير في القرن الثامن عشرِ لقد جَعلَ الحريةَ وثنا، وهو ما عزز على نحو ظلامي التلاعب بحكم القانون. وينهي أندرس قصّته، لكن لَيسَ قبل اقتفاء الظلِّ الممتد الإرهاب الفرنسي، فقد أثبتت الثورةُ الفرنسية بالبرهان أنَّ الهمجيةُ المُتعطشة للدماءُ ما كَانتْ فقط نتاج عصور الظلام. فالإنسانية صمّمتْ على جَلْبها إلى العصر الحديثِ وألبستها أثواب القوانين والدساتير.

من ناحية أخرى يتوقف أندرس أمام النموذج القاسي المستكبر كحامل لهذه الثقافة العدوانية، خُذْ مثالَ روبسبير، صَعد المحامي الشاب الموهوب إلى

السلطة، محاطا بهالة سمعته كشخص مستقيم بلا أخطاء. وقد أعاد تشكيل الحركة التي انضم إليها، بتطهيرها من المعارضين وإحاطة نفسه بدائرة ضيقة مغلقة من العقائديين المتشددين. لَكنّه كَانَ صلبا كان لا يَستطيعُ تحمل فكرةَ قابليته لأن يخطئ بقى أكثر مما ينبغي وفي النهاية قطع رأسه.

الأيديولوجيا وثقافة رفض الأخر:

وفي إطار التميز الذي أشرنا إليه في بداية هذا الفصل بين الثقافتين الأوروبية (الفرنكفونية) والأنجلوفونية ظهرت مدرسة في الدراسات الإنسانية الإنجلوفونية تحمل الأيديولوجيات ذات الخلفية التنويرية - أي التي تأسست على مثل التنوير الأوروبي وفكر الثورة الفرنسية - المسئولية عن إبادة "الآخر" بوصفها أعلى أشكال "رفض الآخر" في السلوك الإنساني. وتحت عنوان "التاريخ الاقتصادي للقرن العشرين: الإبادة الجماعية" كتب الأكاديمي الأمريكي جي برادفورد دي لونج عن علاقة الأيديولوجيات التنويرية عن الإبادة في القرن العشرين.

ويرى برادفورد أن التحسن الملحوظ في القدرات التقنية الإنتاجية للإنسان والقوى التقنية والتنظيمية ظهرت خلال القرن العشرين كان فعليا تحسنا خالية من القيم، والقرن الذي قد شهد النمو الاقتصادي الأسرع والمجتمعات الإنسانية الأغنى على الإطلاق شهد أيضا أعظم جرائم الإبادة الجماعية على نحو مضاعف، فالجرائم الأكبر في التّاريخ الإنساني ارتكبت والمجرمون الأكثر بشاعة على مدى التاريخ، عاشوا خلال المائة سنة الماضية.

وتُقدّمُ الجداول التالية بضعة تقديرات من "R. J. Rummel's Death by Governments" وهو كتاب أخذ على عاتقه مهمة متجهمة هي مُحَاوَلَةِ تقديم حساب تقريبي لضريبة الموت العنيفة تقريباً في القرنِ العشرين. وروميل

يستثنى من إحصاءاته لضحايا الإبادة القتلى الذين حصدتهم الحروب وكذلك من ماتوا بشكل "عرضي" من المدنيين في أوقات الحروب (وهي: الوفيات نتيجة ما يمكن تصنيفه عمليات عسكرية ضد القوّات المسلحة للعدو أما التدريبات العسكرية مثل القصف العسكري اللّيلي البريطاني للمدن الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية فيحسب ضمن حلقات الإبادة الجماعية). تقديرات روميل لضحايا الإبادة الجماعية هي فقط لمن قتلتهم حكومات في غير أوقات الحرب أو بعيدا عن خطوط القتال.

الوفيات نتيجة العمليات العسكرية في هذا القرن شنيعة بما يكفي: فالحكومات وجنودهم قتلوا ربما أربعين ومليونا من البشر في الحرب، كانوا إما جنودا شاء سوء حظهم أن يكونوا في جيوش القرن العشرين الضخمة أو مدنيين قتلوا خلال عمليات يعلن القادة أنها استهدفت تقليص القدرة العسكرية للعدو.

المدنيون الذين قتلتهم الحكومات خلال القرن العشرين:

لكن الأنظمة السياسية العشرون الأعلى قتلا قتلت - تقريباً - ١٥٦,٠٠٠,٠٠٠ - مدني في هذا القرن (القرن العشرين). بينما الحروب كانتْ خسائرها أقل من ربع هذه الضريبة الباهظة بعيدا عن ميادين القتال وفي فترات السلم، فبعض حكومات هذا القرن أيديها ملطخة بدماء: أعداء طبقيين، أعداء عرقيين، أعداء سياسيين، أعداء اقتصاديين، أعداء متخيلين سمهم أنت، وقد ذبحتهم حكوماتهم بالمعنى الحقيقي.

دعنا نسمي أولئك الزّعماءِ الذين ذبحت أنظمتهم أكثر من ١٠ ملايين من إخوتهم في الإنسانية "أعضاء نادي العشرة ملايين". كل التاريخ السابق على القرن العشرين قد يكون (وقد لا يكون) قَدْ رَأىَ عضوين فقط من أعضاء "نادي

العشرة ملايين": جنكيز خان، حاكم المغول في القرن الثاني عشرِ، الذي انطلق في غزوات دَموية كبيرة من قلب آسيا والصين، ومؤسس سلالةِ يان الصينية الحاكمة (رحلات ماركو بولو وصلت بلاط إمبراطور يان، قبلاي خان)؛ وهونغ كسيوكوان، مفكر الصين في منتصف القرن التاسع عشر الذي أعلن نفسه أخا أصغر للسيد المسيح وأطلقَ التمرّد المسلح في تيبينج. ولا يوجد فردٌ بعينه لَعبَ دورا هامًا في خلق ونموِ تجارة العبيدِ الأطلسيةِ الحديثةِ المبكّرةِ، أو في استغلال المرضِ على نحو مخطط لإبادة السكان الأصليين في الأمريكتين. أولى هاتين الحلقتين التّاريخيةِ كَانت إبادة جماعية "سوبر" بامتياز الثّانية - ليس على وجه التأكيد - قد تكون فقط إبادة جماعية.

بالمقارنة، القرن العشرون شهد ربما خمسة أعضاء من نادي "العشرة ملايين": في أولهم بالترتيب الأبجدي:

أدولف هتلر

تشيانج كاي شيك

فلاديمير لينين

جوزيف ستالين

ماو تسي تونج.

هتلر، ستالين، وماو لديهم أوراق اعتماد تؤهلهم لعضوية نادي الثلاثين مليونا بل ربما حتى نادي الخمسين مليونا على نحو جيد. معرفتنا بما حدث داخل الصين، الاتحاد السوفيتي، والرايخ الثالث ناقصة جداً. ونظام دموي أياديه ملطخة بالدم مثل نَظام سوهارتو في إندونيسيا الذي تلطخ يديه دماء حوالي

٤٥٠,٠٠٠ شيوعي، مشتبه في أنهم شيوعيون، وآخرون كانوا ببساطة في المكان الخطأ في الوقت الخطأ عند نشأته عام ١٩٦٥، وربما ١٥٠,٠٠٠ من سكان تيمور الشرقية التي استولى عليها بالقوة منتصف السبعينات، مثل هذا النظام يَجْعل قائمة الأكثر في القرن العشرين الأكثر قتلا بالكاد تثير القلق على إبادة المدنيين.

أصول الإبادة الجماعيةِ في القرن العشرين:

ويرجع البعض بدايات ثقافة الإبادة الجماعية في القرن العشرون، للانقلاب في القواعد التَقليدية للحرب الأوروبية التي ميزت بشكل حاد المقاتلين عن غير المقاتلين. في حرب البوير عند منعطف القرن في جنوب أفريقيا وجد الجيش البريطاني نفسه في مواجهة موجه عنيدة من حرب العصابات هزيمة الجيوش النظامية لجمهورية البوير. الجيش البريطاني رَد باختِراع معسكر الاعتقال كما نَعرفه: تقليل سكان الرّيف وحِشد المدنيين معا. وانتشر المرض وكانت الوفيات عالية نسبيا رغم أنها الأقل بين كل الحالات المماثلة في القرن العشرين.

الآخرون اقتفوا آثاره في مدح العنف الذي رَافق دائما الاشتراكية في نسختها الماركسية. في كتابات ماركس، المؤسسات السياسية الديموقراطية، الحقوق الفردية، والحوار العام دائما أقنعةُ وأكاذيبُ في غياب المساواة الاقتصادية الجوهرية ويجب محاربتها بعنف مثل إقطاعيي القرون الوسطى الذين كانوا يذبحون الفلاحين إذا عجزوا عن دفع إيجارات أراضيهم.

آخرون يرجعونها (ثقافة الإبادة الجماعية) إلى الثَورةِ الفرنسيةِ كبرى ثورات القرن الثامن عشرِ، إلى فلاسفة سَياسيين مثل جان جاك روسو، وإلى الفكرة التي مفادها أي حزب سياسي يمثل الأمة يخوض صراع حياة أو موت

مع العدو فلا يجوز النقاش بشأن وسائل الصراع. وآخرون يقولون إنها (الإبادة الجماعية) كانت تحدث دائما، لكن قبل القرن العشرين كانت الحكومات والديانات عموماً بسبب نقص قدراتها التنظيمية، كان النقص بالتأكيد حافزا لإبادة عشرات الملاين من إخوانهم. كان بإمكانهم إدارة مذابح، تطهير، إحراق ساحرات بشكل جزئي، ووحده غياب تقنيات الاتصال الحديثة والمنظمة ما حال بينهم وبين انتقالهم لهذا الحجم الضخم من مذابح الإبادة الجماعية كالخمير الحمر. كان أسقف كاثوليكي فرنسي هو من قال عندما سئل كيف تمييز الزّنادقة من المؤمنين الحقيقيين في مدينة تم الاستيلاء عليها حديثا، ويقولون إنه قال:

"اقتلهم جميعا! الله سيتعرف على عباده. "

وهناك بعض الحقيقة في كل من هذه التفسيرات. كمثال، ممارسة لجنةِ روبيسبير للسلامة العامّة خلال الثّورة الفرنسية في إعدام ليس فقط الزّعماء لكن أيضا أبتاع وعائلات معارضيهم السّياسيين (ممارسة روبسبير انقلبت عليه عندما استخدمها ضده خصومه السياسيون بمجرد أن أمكنهم ذلك)، وممارسات الجيشِ في إخلاء السكان من المناطق المتململة مثل فاندي (فنديه) الفرنسية الغربية، وممارسة إجراء محاكمات معدة سلفا لإضفاء قشرة رقيقة من "المشروعية" وبناء عليها تنفيذ عمليات قتل سياسي، كل هذه الممارسات تجد أصلها في الثورة الفرنسية.

الحلقتان الرّئيستان الأوليان الإبادة الجماعيةِ في هذا القرنِ، ربما المليون فلاح الذين قتلوا في روسيا في العقدين الأخيرين من حكم النّظام القيصري وما يناهز المليون مدني الذين ماتوا في العام الأخير من حكم الرئيس بورفيريو دياز وسّنوات الثّورة في المكسيك، ويشبهان إلى حد بعيد الاستعمال التّقليدي

للعنف على يد أرستقراطية لتحافظ على القوة والثروة.

لكن القدرة الأكبر للحكومات على تخطيط وتنفيذ عمليات تطهير، وحدة الصراعات الإثنية وصعود العنف القومي لم تكن كافية معا لإطلاق شرارة الإبادة الجماعية التي شهدها هذا القرن. لقد تطلب هذا وجود حركتين سياسيتين: الشيوعية والفاشية وكلتاهما كانت في صميمها حركة ذات عقيدة اقتصادية.

الشيوعية والنازية:

الشيوعية كما نعرف كان مولدها عندما استولى في نهاية ١٩١٧ جناح فلاديمر لينين المنشق عن اليسار الروسي "البلشفي" أو ما كانوا أغلبية الحزب الديموقراطي الاجتماعي الروسي الموحد، موجهين ضربة لحكومة كيرينسكي المؤقتة. حرب أهلية وحشية تلت ذلك، فالـ "بيض" مؤيدو القيصر والأوتوقراطية المحلية يطلبون استقلالا فعالا، وأتباع لينين الـ "حمر" ومعهم قوات أخرى ضالة ضمنها جيش تشيكي وجد نفسه في البداية محاصرا ثم حاكما فعليا لسيبيريا، وكتائب يابانية (الولايات المتحدة أرسلت كلا الفريقين بهدف تحرير أرض تكون قاعدة للقوات المعاداة الشيوعية، ولتوفير إمددات غذائية لسكان المناطق التي يحكمها الشيوعيون)، وهؤلاء، قاوموا لثلاث سنوات تالية في معظم روسيا.

عندما انتهت الحرب الأهلية كان نظام لينين يحكم. القادة العسكريون للنظام القيصري كانوا أمواتا أو منفيين في باريس أي وسط ليبرالي ديموقراطي ليبرالي اجتماعي تم تطهيره (التخلص منه) على يد "البيض" أو "الحمر" خلال مسار الحرب الأهلية. والمجموعة الصغيرة نسبيا من الغوغاء الذين تجمعوا تحت راية لينين قبل الثورة وجدوا أنفسهم أمام مشكلة إدارة دولة وبناء مدينة

فاضلة (يوتوبيا) بمساعدة أولئك الذين قاموا بالدعاية لـ "الحمر" ومن وقفوا ضد "البيض" ومن ارتبطوا بهتلر خلال الحرب الأهلية.

أول ما واجه نظام لينين كان ضرورة إزالة الرأسمالية. طبقاً للنّظرية الماركسية التي آمن بها لينين بعمق، الرأسمالية - الملكية الخاصة للأعمال والأرض من الأعمال والأرض، والمنفعة الشخصية - كَانتَ مصدرَ التَّفاوتَ الطبقي أو الاستغلال. لكن كيف يمكنك إدارة صناعة وحياة اقتصادية في أصحاب الأعمال ممن تعتمد دخولهم ومستوياتهم الاجتماعية بشكل مباشر على ازدهار المشاريع الفردية، ومثل هؤلاء لديهم الحافز لأن يصنعوا، الجزء الذي يخصهم من الاقتصاد والقوة المنتجة.

جواب لينين كان أن تنظم الاقتصاد مثل جيش: من أعلى لأسفل، مخطط، هرمي، خطط معدة، مدراء أقل كفاءة ينجزون المهام التي تقررها القيادة، وكان لينين معجبا باقتصاد الحرب الألماني المخطط مركزيا في الحرب العالمية الأولى. الأمر الثاني الذي واجه نظام لينين كان تصنيع روسيا. خائفا من أن القوى الصناعية الكبرى قد تقرر أن تزيل نظامه، وبيأس من يدرك درجة تخلفه الصناعي، بدا للينين وأتباعه أن جعل النظام العسكري في خدمة التصنيع كان أساسيا.

الأمر الثالث كَانَ أنْ يبقى نظامه. وكما كتب المؤرخ البريطاني إيريك هوبسباوم عن نظام لينين: "كما يعترف لينين... كل ما كنا نسعى إليه هو ما كان في الواقع... المؤسسة الحاكمة للدولة. ولا شيء غير ذلك. مع هذا، من حَكم البلد في الحقيقة كان ضعف الفئات البيروقراطية الصغار والكبار... " وحتى تبقى حكومة لا يوجد فئات اجتماعية قوية أو جماعات مصالح يربطها بها أسباب للموالاة العقائدية فإن الأمر يتطلب الكثير من القسوة.

قمع هائل مورس ليس فقط ضدَ المجتمعِ خارج الحزب الشيوعي لكن ضد نشطاءِ الحزب الشيوعي نفسه. أي "اقتصاد بالأمر" ظهر لكونه من متطلبات "حكم بالأمر" أيضاً. ربح الحزب الشيوعي الحرب الأهلية الروسية كحزب دكتاتوري واحد مدعوم بشرطة سرية قوية وعدوانية، التزمت استعمال الإرهاب الجماعي لقمع أعداء الثورة، ولمنع ظهور ديمقراطية أو حوار داخلي لمناقشة إدارة الدولة وسياستها.

وكما حذرت الماركسية الألمانية روزا لكسمبورغ، العملية تبدأ بالحكم باسم الناس، ثم إحلال عدالة الحزب الشيوعي محل رغبات الناس ثم إحلال قرارات اللجنة المركزية محل العدالة الثورية، ثم إحلال نزوات الديكتاتور محل قرارات اللجنة المركزية. والدكتاتور الذي ربح الصراع على السلطة بعد موت لينين - جوزيف ستالين - كان شخصية سيكوباتية مصابا بجنون العظمة، وقد جعل إرهاب لينين يبدو معتدلا ومقبولا.

الفلاحون أطلق عليهم النار وماتوا من المجاعة ونفي الملايين منهم إلى معسكرات السخرة في سيبيريا بالملايين في الثلاثينات. عُمّال مصانعِ أطلق عليهم النار أو نُفُوا إلى معسكرات السخرة في سيبريا لإخفاقهم تحقيق معدلات الإنتاج المفروضة من القيادة. مثقفون أطلق عليهم النار أو نُفُوا إلى معسكرات السخرة في سيبيريا لأن ولاءهم لستالين غير كاف، أو لانحيازهم لسياسات أعلنها ستالين في العام السابق وتبين أنها ستؤدي لتغيير بطيء. نشطاء شيوعيون، بيروقراطيون، وشرطة سريون، أكثر مِنْ خمسة مليون مسؤول حكومي وأعضاء حزب قتلوا أو نُفُوا في حملةِ التطهير الكبرى في الثلاثينات أيضاً. كُل أبناء جيل ستالين ممن كانوا في السابق مساعدين للينين رحلوا بنهاية

openeikanani.com

الثلاثينات. المندوبون الـ ١٨٠٠ إلى مؤتمر الحزب الشيوعي عام ١٩٣٤، أقل من نصفهم كان على قيد الحياة بحلول عام ١٩٣٩.

وفي موسوعته "اليهود واليهودية والصهيونية" للدكتور عبد الوهاب المسيري يتوقف أما جرائم ستالين مشيرا إلى عمليات الإبادة التي قام بها النظام الستاليني ضد الشعوب الإسلامية في الخانات التركية (التي أصبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية). وكان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا، أما الآن فهو لا يُكوِّن سوى نسبة مئوية ضئيلة، ومصيره بهذا لا يختلف كثيراً عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية. وقد استمر النظام الستاليني في عمليات الإبادة المنهجية والمنظمة لأعدائه الطبقيين مثل الكولاك الذين قاوموا تحويل مزارعهم إلى مزارع جماعية، بل تم إبادة كثير من أعضاء الحزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور. وكانت الإبادة تأخذ أشكالاً مختلفة مثل الإعدام والعمل في معسكرات السخرة. وقد بلغ عدد الضحايا ٢٠ مليون مات منهم ١٢ مليون على الأقل في معسكرات الجولاج: هذا حسب التقديرات المحافظة، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ ٥٠ مليوناً! وبعد حوالي نصف قرن لا تزال عمليات الإبادة والتطهير العرْقي على قدم وساق في البوسنة والهرسك والشيشان ولا تزال بعض الدول الغربية تراقب هذا بحياد غير عادي. إبادة الآخر إذن آلية أساسية استخدمها التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي في تحقيق رؤيته ومثالياته.

ونحن حقيقة لا نعرف كم عدد الناس الذين ماتوا على يدي النظام الشيوعي في روسيا. بينما يَكْتبُ باسيل كربلاي في مجتمعِه السوفيتيِ الحديثِ، نَعْرفُ أكثر عن عدد الأبقار والخِراف في الثلاثيناتِ أكثر من معرفتنا عن عدد من

www.books4all.net

ماتوا من معارضي ستالين، الأعداء الوهميون (المتخيلون)، والمتفرجون الذين قتلوا. آر. جي. روميل يقدر العدد بـ ٦٢ مليون ميت.

وقصّةُ ماو في الصين مشابهة لقصّةِ ستالين في روسيا: نفس الالتزام عديم الرحمة باستِعْمال أي وسائل ضرورية لإعادة صنع المجتمع والإبقاء على حكم الحزب الشيوعي، نفس الرغبةِ في الهيمنة على كل القوى الاجتماعية الأخرى وبناء الاقتصاد والحياة الاجتماعية بشكل مركزي ذي تنظيم شبه عسكري، نفس أوهامِ العظمةِ والشعور بالاضطهاد. مُساعدو ماو كَانوا ربما أفضل مِن مساعدي ستالين في محاولتهم إبعاده عن السلطة بهدوء ليصبح منصبه رمزيا: ليو تشاو تشي ودينج سياو بنج اعتقدا بأنّهم أنجزوا ذلك إثر النتائج الكارثية التي نجمت عن السياسات الاقتصادية للخمسينات التي أدّتْ إلى مجاعة ضخمة قَتلتْ عشرات الملايين. لكن رغبةُ مُساعدي ماو في السيطرة على زعيمهم المذعور أطلقت شرارة الثورة الثقافية، ضربة ماو المضادة التي فيها حشّدَ الشباب والعقائديين المتطرفين ضدّ الهيكل التنظيمي للحزب الشيوعي، وفي النهاية ببساطة زادت الخسائر في الأرواح.

ثالث زعماء الأنظمة السياسية الأكثر قتلا في القرن العشرين، أدولف هتلر في ألمانيا النازية، ربما لم يجار أيا من نظيريه: ستالين وماو في طول استبداده، لكنه بالتأكيد كَانَ سيذهم في الشر. صنع جماهيرية على ساحة السياسة الألمانية باستغلال الاستياء القومي من أولئك الذين هزموا ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ومحنة الكساد الاقتصادي العظيم. اكتسب قوة بهزيمة السياسيين اليمينيين الذين أدخلوه الوزارة لزيادة رصيدهم في الشارع..

وبسرعة حول ألمانيا إلى دكتاتورية شمولية مركزية، وكانت فيها، نظرياً

على الأقل، كُلّ المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية "منضوية" تحت الحزب النازي. "ما الذي نحتاجه لجعل الصناعة أو الزراعة جماعية؟ أن نجعل البشر جماعيين"!

وحتى بداية الحرب العالمية الثانية كان الإرهاب، بمعاييرِ القرنِ العشرين، صغيرا نسبياً: قتل، سجن، مضايقة اليهود، نشطاء معارضون سياسيون، شواذ جنسياً، وبعض المعاقين والمرضى العقليين. بعد بداية الحرب العالمية الثانية، دارت ماكينة الإبادة وتحركت على نطاق واسع. البعض عملوا حتى الموت في معسكرات السخرة ووضعوا تحت تصرف شركات ألمانية مثل كروب وآي. جي. فاربن. البعض أطلقت النار عليهم فرق إبادة متنقلة. وكثيرون أطلق الجيش النار عليهم وهم بعيدون تماما عن خطوط القتال. البعض تركوا للموت في معسكرات الاعتقال. وكثيرون آخرون على خطوط التجميع في معسكرات الإبادة.

بالنسبة لستالين وماو يمكن الإشارة إلى أسباب - أسباب مجنونة وأفكار خاطئة، هذه حقيقة، لكنها رغم هذا تبرر - فتصرفاتهم وأعمال القتل التي قاموا بها يوجد إحساس بأنها في النهاية أهداف نشترك معهم فيها من الازدهارِ العام والتنمية الإنسانية وسبب اختيارهم الطريق الذي يقول عنه الشاعرَ دبليو. إتش. أدن "قبول تحمل الذنب عندما يكون القتل ضروريا". وكانت هناك حاجة للثورة الثقافية في الصين لإبقائها بلدا شيوعيا يمكن أن يصبح يوما ما مدينة الحرية والمساواة الفاضلة. ولمنعها من الانحطاط إلى ديكتاتورية بيروقراطية مثل الاتحاد السوفيتي. الذبح الجماعي لفلاحي أوكرانيا كان ضروريا لأن زراعةً مستندة على المزارع الخاصة والحيازات الصغيرة بدلاً من مزارع جماعية وزراعة مميكنة تكن أبدا لتنتج الزيادة الإنتاجية الكافية لإشباع سكان مدن كانت

تنمو بسبب عملية تصنيع الاتحاد السوفيتي. هذه التبريرات كانت خاطئة - خاطئة بشكل مجنون - لكن التنمية الاقتصادية وتجنب الاستبداد البيروقراطي أشياء جيدة.

لكن ماذا عن هتلر؟ قتل في معسكرات الاعتقال، معسكرات الإبادة، العمل الإجباري، قتل ستة ملايين يهودي، ومليونين من جنسيات متفرقة في غرب أوروبا، واثني عشر مليونا تقريبا من أوربا الشرقية بالإضافة إلى الوفيات المترتبة على الحرب العالمية الثانية؟ لماذا؟ لتقليل احتمال أن يكون "العرق" الألماني قد تلوث بفعل الزواج المختلط، ولتوفير "فضاء للحياة" للمزارعين الألمان.

ستالين وماو ما زال لديهما من يدافعون عنهما: الناس الذين يرفعون يدا واحدة معترفين بأنه "ليس هناك شك في أنه تحت حكم قائد أخر [غير ستالين]... معاناة سكان [جمهوريات الاتحاد السوفيتي] كَانَ يمكنُ أَنْ تكون أقل، عدد الضحايا كان يمكن أن يكون الضحايا"؛ ومن ناحية أخرى يكتبون باليد الأخرى:

أي سياسة للتحديثِ السريعِ في الاتحاد السوفيتي... كانت حتما ستكون قاسية، ولأنها مَفْرُوضَة قسرا على الأغلبية وتفرض عليهم تضحيات خطيرة، إلى حد ما قسرية... فهي أقرب إلى عملية عسكرية منها إلى مشروع اقتصادي. من ناحية أخرى... التَصْنيع الخطر في الخطط الخمسية الأولى (١٩٢٩ - ٤١) صنعه كل "الدم، الكدح، الدموع، والعرق" المفروض على الناس... الذين تم تشجيعهم على التضحية بأنفسهم.

هتلر، على أية حال، ليس لديه من يدافع عنه، ليس لديه واحد ليدعي أنه ربما استعمل وسائل مفرطة للوصول لنهايات الجيدة. أهدافه النهائية - النقاء

العرقي الأري للشعب الألماني، و"فضاء حياة كافٍ" تحت تصرف الأمة الألمانية لتتمكن من السيطرة على العالم - بعيدة، بعيدة، بعيدة خارج حدود ما يمكن تبريره.

العقيدة الاقتصادية والقتل السياسي:

ما الأثر الذي تفعله هذه الدموية السياسية وهذا التاريخ للبوليس السري في بالتاريخ الاقتصادي، بقصة كيف ينتج ناس، ويوزعوا ويستهلكوا سلعا يحتاجونها وأخرى يرغبون فيها لحياة أفضل ماديا.

أولاً، احتمال أن تطرق الشرطة السرية بابك وتَسْحبُك للتعذيب والموت تهديد خطير لمستواك المادي. فيلسوفُ القرن السابع عشر السياسي توماس هوبز كتب أن الناس يمكن تحفيزهم بالعصا والجزرة: "الخوف من موت وحشي والطموح لحياة أفضل". وفي قرن يكون فيه احتمال اختيار شخص عشوائيا ليقتل برصاصة أو ليموت جوعا على يد الحكومة اقتربت من ٥%. وحقيقة النطاق الواسع للقتل السياسي أصبحت سمة مهمة جدا للحياة اليومية، وللحياة المادية الأفضل.

ثانيا: القرن العشرون فريد في أن ما شهده من: حروب، حملات تطهير، مذابح، وإعدامات، كان جزءا من الصراعات الاقتصادية. قبل القرن العشرين قتل الناس بعضهم بعضا لأسباب دينية: أهل الجنة وأهل النار، كما قتل بعضهم بعضا في الصراع على القوة: من يكون القوة المهيمنة، وأيضا للسيطرة على الثروات المادية للمجتمع. وهذه الدوافع، إلى حدّ ما، مفهومة. لكن القرن العشرين وحده قتل الناس بعضهم بعضا على نطاق واسع لاختلافهم حول التنظيم الاقتصادي للمجتمع.

obeikandl.com

الشيوعية رأت نفسها نمطا طوباويا من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، فدخلت صراعا مميتا مع الأنماط الأخرى "الرأسمالية" و"الإقطاع". ومعارضو الأنظمة كان يجب أن يموتوا لأن وجودهم القوي كان يعزز موضوعية أشكال التنظيم الاقتصادي المضادة، ويمنع إنجاز الازدهار واليوطوبيا العالمية. النازية في أصولها كانت "اشتراكية وطنية": حزب العمال الوطنيين الاشتراكيين الألمان. هؤلاء النازيون اعتبروا "الاشتراكية" دلالة قويا على رغبة جدية من ناحية الحكومة النازية في توزيع متساو لأموال من ماتوا في حملة التطهير عام ١٩٣٤، بعد عام ونصف من قوة هتلر. لكن خطاب معاداة الرأسمالية بقي - كان من ثوابت الدعاية الألمانية المقارنة الدائمة بين عمال ألمان مهرة وممولين يهود ذوي دم ملوث. وكان تبرير النازيين لاستيلائهم على السلطة يجد جذوره في كل من: الرغبة في محو عار هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (معاهدة الحدود المجحفة التي فرضها عليها المنتصرون) وفي الفقر المحبط الذي سببه الكساد العظيم، دافعا جمهورية فايمار الليبرالية للإفلاس السياسي.

العقائد الاقتصادية للشيوعيين والنازيين لم تلعب دورا هاما لا في تعزيز قوتهم ولا الحفاظ عليها. إن رئيس الحزب الشيوعي السوفيتي في قرية أوكرانية يظل متحكما في كل بقرة مملوكة ملكية فردية أو جماعية. لينين وخلفاؤه واجهوا مشكلة صغيرة في الإبقاء على سيطرتهم السياسية خلال العشرينات، حقبة "السياسة الاقتصادية الجديدة" التي سمح الحزب فيها بإحياء المبادرة الفردية الخاصة. وعيوب محاولة إخضاع الحياة الاقتصادية للتخطيط المركزي الوطني كانت واضحة منذ وقت مبكر في النظام. قوّة الحكومة النازية اعتمدت على طريقتها في استخدام الشرطة وعلى الإرهاب. نزع ملكية المشاريع اليهودية، جمع معظم الصناعة في يدي الشخص الثاني في القيادة هيرمان

جورنج، ومحاولة فرض التخطيط المركزي لأغراض عسكرية لم تُساعد النظام النازي: نجاحه في تعبئة الموارد الاقتصادية الوطنية للحرب العالمية الثانية كانت أقل مما حقق ستالين في روسيا، وتشرشل في بريطانيا، أو روزفلت في أمريكا.

لكن هذه العقائد الاقتصادية لعبت دورا هائلا في خلق وتنشيط الحركات، وفي توجيه أعمالهم وهم في الحكم. سيطرة دينج زياو بنج على الصين لم تضعف قراره أن يكون واقعيا: بإعلانه أن القط الجيد هو الذي يمسك الفئران وليس الذي يتفق لونه مع الأيديولوجيا. القوة، الحالة الشخصية، والخلاص الأبدي كان تأثيرها قليلا في التحول السوفيتي للزراعة الجماعية، أو القمع الكوبي للأسواق الصغيرة، أو كارثة قفزة ماو الكبيرة للأمام. هذه كانت في معظمها وظهرت بالتأكيد على السطح لتكون محاولات لتغيير الاقتصاد ليلبي الحاجة لإعلان أن هذه العقيدة أو تلك ضرورية. كوارث القرن العشرين الأخرى كان لها جذور قوية في الأفكار الاقتصادية: من الصعب رؤية الحرب العالمية الثانية في غياب فكرة أدولف هتلر أن الألمان يحتاجون لأرض أوسع سماها "المجال الحيوي" أكثر إذا أرادوا أن يصبحوا "أمة قوية"؛ معتقدا أن المستعمرات وراء البحار أمدت زودت القوى المتنافسة قبل الحرب العالمية الأولى بقوى اقتصادية جبارة.

لذا فإن جزءا مهما جداً من تاريخ القرن العشرين هو حقيقة أن أسباب إراقة الدماء يرجع معظمها للعقائد الاقتصادية، والعقائد المتصلة بالعالم: كيف يعمل، وكيف يجب أن ينظم.

* * * * *

obeikandi.com

الفصل الثالث:

صورة الإسلام والمسلمين في الغرب كنموذج لثقافة رفض الآخر

obeikandi.com

في خضم حرب الخليج توجه الإعلامي الفرنسي برنار بيفو إلى المستشرق الفرنسي المعروف جاك بيرك قائلا: "أمامك ثلاثون ثانية كي تقول للفرنسيين ما إذا كان القرآن أداة حرب أم لا"، بهذا الابتسار المتعمد بقيت لقرون صورة الإسلام في الوجدان الغربي ترسم. وبشكل عام يعد ملف العلاقة بين العالم الإسلامي والغرب من أخطر الملفات التي تواجه المثقف المسلم وصانع القرار المسلم على السواء. وقد أكدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تبعها من تداعيات، حقيقة طالما نبهت إليها أصوات من الجانبين هي ضرورة بذل مزيد من الجهد لإعادة صياغة هذه العلاقة دون ركون إلى المقولات الجاهزة والتفسيرات التآمرية المختزلة من الجانبين. فرغم أن الثقافة الإسلامية تأمر كل مسلم أن يعدل حتى مع أعدائه "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى" (سورة المائدة ٨)، فإن خطاب العداء الكاسح للغرب انتقل إلى بعض الأدبيات الفكرية والدعوية الإسلامية، كرد فعل لخطاب العداء الغربي وهو رد كان يجب ألا ينجر بعض منا إليه، حتى لو أظهر لنا الآخرون العداء.

فكما أن الإسلام لا يجوزه اختصاره في مفاهيم مشوهة قاصرة كذلك الغرب، فهو ليس كيانا واحدا مصمتا بل عالم مركب فيه المتحيزون والمنصفون، وفيه المضللون الذين لا يجدون مصدرا يمكنهم عن طريقه تكوين صورة أكثر اقترابا من الحقيقة عن الإسلام والمسلمين. وعموما، تجب التفرقة كذلك بين الشعوب والحكومات، وبين المؤسسات الإعلامية والأوساط الأكاديمية، وهكذا.

ولعل ما شهدته الدعوة الإسلامية من نجاحات عقب هذه الأحداث، متمثلة

في دخول آلاف الأمريكيين الإسلام تؤكد أن العداء المتصور "بضاعة" تروج وليس موقفا مبدئيا كاسحا يلتزم به كل غربي أو كل أمريكي. وإذا أخذنا علم الاستشراق كمثال طالما وضع في إطار تآمري بوصفه عملا عدائيا منظما استهدف تشويه صورة ثقافتنا، وجدنا التعميم مخلا إلى حد بعيد. فرغم أن صلات وثيقة ربطت بين كثير من المستشرقين وبين مؤسسات سياسية وأمنية غربية بعضها استخدم المستشرقين لخدمة أهداف استعمارية، إلا أن الظاهرة لم تخل من إيجابيات كثيرة يصر كثيرون على إهدارها.

ومما لفت نظري بشكل خاص إلى هذه الحقيقة ما يقرره واحد من أهم الباحثين الإسلاميين المدققين في النصف الثاني من القرن العشرين، هو الأستاذ الدكتور حسين مؤنس صاحب العديد من الأعمال الموسوعية في حقلي التاريخ والجغرافيا، إذ يقول، في مقدمة الطبعة الأولى من مؤلفه الضخم "تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس":

"كلامنا عن العلوم عند العرب كثير، وحديثنا عن فضلهم على الحضارة العالمية أكثر، ولكننا إذا استثنينا قلائل منا صرفوا العناية إلى التأليف في العلوم عند العرب وخدموا هذا المطلب بالبحث والتأليف من أمثال: أحمد عيسى، ومصطفى نظيف، ومصطفى الشهابي، ونفيس أحمد، وزكي وليدي، وبهجة الأثري، وقدري حافظ طوقان وغيرهم من أجلاء العلماء، وجدنا أن معظم ما نفخر به في هذا المجال إنما هو من كشوف غيرنا، من أمثال: جورج روشكا، وهانز فون مجيك، وجورج سارتون، وكارلو نللينو، وبول كراوس، وألدو ميبلي، وهاينريش سوتر، وماكس مايرهوف، وكونراد ميللر، وخوان بيرنيت، وغيرهم كثيرين جدا، ممن أنفقوا – وينفقون – العمر في دراسة المخطوطات العربية في العوم وحل رموزها وإثبات فضل العرب وأهل الإسلام على هذا العلم أو ذاك بالحجة والبرهان

الساطع" أ. هـ

واقتصار اهتمامنا على الدوائر التي تصنع صورة "الإسلام العدو" في الغرب من المؤكد أن له ما يبرره، أولا لأن الغرب هو الذي بدأنا بالعدوان السافر في الحروب الصليبية وما بعدها من موجات الاستعمار العسكري التي توالت لأكثر من قرنين، ثم تبع ذلك ثانيا هجوم من جانب كثير من المستشرقين على الإسلام عقيدة وشريعة وثقافة، الأمر الذي جعل تاريخ العلاقة بين الجانبين منذ الحروب الصليبية يحكمه العداء. غير أن ثمة محاولات لإعادة صياغة هذه العلاقة الشائكة على نحو مختلف ينبغي ألا تهمل وسط صخب الخطاب التحريضي.

والدراسات التي تحاول إعادة بناء صورة الإسلام والمسلمين في الذهنية الغربية لا تكاد تنقطع، وإن كانت لا تلقى الاهتمام الكافي، وإحدى أهم هذه الدراسات، صدرت بالألمانية وعنوانها: "الإسلام العدو: بين الحقيقة والوهم"، وفيه تحذر الكاتبة الألمانية أندريا لويج من ظاهرة من تطلق عليهم "الخبراء الوهميين" أمثال جيرهارد كونستلمان وبيتر شول لاتور الذين سيطرا على أجهزة الإعلام لسنوات دون منازع بوصفهما خبيرين في شؤون الشرق الأوسط. ولا شك في أن سيطرة ما يسمى "ثقافة الصورة"، والغياب شبه التام لقوى عربية أو إسلامية تقوم بجهد إعلامي مقابل، يمنح هذه لبضاعة المسمومة فرصة ذهبية لأن تروج على أوسع نطاق.

ورغم الانتشار الكاسح لهذه المقولات لم يعدم العالم الغربي أن يجد أصواتا تزعجها ظاهرة "الخبراء الوهميين" فخاضت ضدها حروبا، لكن ذلك - للأسف - لم يغير ذلك من الأمر شيئا حتى الآن. وبدلا من التحليل العلمي الجاد رسمت

للعالم الإسلامي صورة وهمية من خلال تضخيم المخاوف النفسية والعنصرية. ومن هنا، وجه المستشرقون في جامعة هامبورج الاتهام لبعض خبراء الإعلام بأنهم يعملون بأساليب غير شريفة على توسيع الفجوة بين الثقافتين الشرقية والغربية وتعميقها، بالإشارة دائما استحالة الحوار بينهما.

ولا تقتصر الظاهرة على ألمانيا ففي فرنسا هناك مثلا ألكسندر دل فاله الذي يعد جزءاً ممن تسميهم صحيفة "لوفيغارو" الفرنسية "حلقة الخبراء السحرية" المدعوين في شكل دوري إلى شاشات التلفزة، وبخاصة منذ الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. فهو كنموذج لهؤلاء الخبراء، لا يحب التعقيد ويرى أن العالم يمكن تحليله بسهولة، ومن تحليلاته الواسعة الانتشار: "إن مبدأ رفض الحكم الكافر هو الذي يفسر غالبية النزعات بين المسلمين و"الكفار" في كشمير والسودان وأرمينيا والشيشان وحتى في كوسوفو ومقدونيا حيث أصبح المسلمون يشكلون الغالبية السكانية". وبطبيعة الحال تحدث مثل هذه التفسيرات أثرا خطيرا في الغرب الذي يحتفظ للحروب الدينية بأسوأ الذكريات ويربط بينها وبين مفاهيم سلبية عديدة.

الإسلام ذلك المجهول:

وتكشف أندريا لويج عن جهل فاضح بالإسلام والثقافة الإسلامية بين المتخصصين وتنقل عن اثنين من المتخصصين الألمان هما أرمجارد بين وماليز فيبر قولهما: "إنه لمن التناقض الغريب والمدهش حقا بين عدم معرفتنا بالإسلام والثقافة الإسلامية وبين ثقتنا الشديدة في إطلاق الأحكام عليهما، ولم يحدث مرة أن استنكر هذا الجهل ولو مرة واحدة، بل إن النقد والاتهام يوجه باستمرار إلى تلك الثقافة دون أدنى حرج".

وفي معظم الحوارات التي تدور عن الإسلام تتكرر دوما عبارة "إنني لا أعرف شيئا عن الإسلام ولكن ..." وتعلق لويج قائلة: "إننا لا نفيق عند (لا أعرف) هذه لأنها ببساطة تسمح لنا ببناء عالم آخر، عالم إسلامي حتى لو لم يتسق هذا البناء مع الواقع، وهو فعلا كذلك. فهو مطلوب لفصل (نحن) عن (الآخر) والداخل عن الخارج فصلا لا ينمحي لكي يؤمن حدود الهوية الغربية وحصنها، وهنا تظهر الكلمة السحرية ذات الحروف الخمسة (إسلام) فتنشر الفزع". بل إن أحد أساتذة العلوم السياسية النمساويين يحذر من أن إنسانية الغرب مهددة أكثر من أمنه بسبب العداء للآخر.

ولا تعني مثل هذه الحقائق أن ميراث العداء ذهب إلى غير رجعة أو أن العلاقات القائمة تخلو من عوامل التوتر، فما زال العلاقات بين الشمال والجنوب عموما تفتقر إلى التوازن والعدالة وتغلب عليها إرادة الهيمنة الغربية، وما تعانيه ثقافات الجنوب من هذا الواقع تعاني الثقافة الإسلامية منه النصيب الأكبر، ويشكل الموقف الغربي المنحاز للكيان الصهيوني العقبة الأكبر في طريق قيام علاقات إيجابية بين الطرفين.

كما أن تغير صورة الإسلام والمسلمين في الغرب على نحو إيجابي مرهون بعوامل عديدة أولها ضرورة تحديد منابع السيل الهادر من الصور السلبية وبذل جهد لتصحيحها بالوسائل التي تناسب المجتمعات الغربية وباللغة التي يفهمها المواطن الغربي. كما أن إعادة بناء الصورة مرتبط بشكل مباشر بإعادة بناء واقع العالم الإسلامي نفسه، فمما يلفت النظر أن كثيرا من الغربيين الذين اعتنقوا الإسلام ورأوا في قيمه طريقا للنجاة هالهم حالة التخلف التي يعيشها العالم الإسلامي. وبالتالي فإن قدرتنا على بناء عالم أفضل تأسيسا على

قيم الإسلام وثقافته، رد عملي على كل ما يلصق بنا من صفات سلبية، وهو أبلغ من كل ردا!!

من نماذج ثقافة رفض الآخر: صورة الإسلام والمسلمين في مناهج الدراسة الغربية:

قد لا نبالغ إذا قلنا إن "الصور النمطية" هي المتهم الأول في المسار الطويل من الصراعات التي خاضتها البشرية في العصر الحديث وصولا إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر!!

ويقصد بالصورة النمطية: "مجموعة الصور والأفكار التي تأتي إلى ذهن شخص معين عند تفكيره في أبناء جماعة أخرى، وعادة تتميز الصور النمطية بالعمومية ولا تستند إلى حقائق موضوعية". ورغم أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر تشكل منعطفا في تاريخ الولايات المتحدة ودرسا مهما لذلك الكيان الضخم المتنوع الممتد على جانبي الأطلنطي ويسمى اصطلاحا "الغرب"، فإنها في الوقت نفسه تمثل بالنسبة للعالم أجمع إنذارا ينبغي أخذه في الاعتبار. فالتناول المتسرع بل السطحي للحادث بوصفه - فقط - تكريسا لمركزية الغرب وهيمنة الولايات المتحدة لا يأخذ في اعتباره إلا الآثار السياسية المباشرة، بينما الآثار الثقافية هي الأكثر خطورة، على المدى المتوسط والطويل على السواء. فقد أكدت الأحداث خطورة غياب الحوار بين سكان هذا الكوكب المهدد، وشيوع الصور النمطية في الشمال والجنوب على السواء، فأجهزة الإعلام القادرة على نقل الصورة والخبر لحظيا لم تزدنا إلا جهلا بثقافات بعضنا بعضا، وعوضا عن "دكتاتورية الجهل" التي كنا نحسب كل منجز تقني خصما من رصيدها، سقطنا جميعا تقريبا صرعى "دكتاتورية التجهيل" بسبب التقنية نفسها.

ومع المزيد من تجارب الصراع عبر القرن العشرين وما مر من القرن

الحادي والعشرين تتأكد حقيقة أن السلم الدولي يحتاج علاقات إنسانية وثقافية تقوم على الاقتراب الحقيقي لا على "تعليب الثقافات". وهذا الكتاب نموذج لدراسات نحتاج إليها لأجل تصورات ثقافية أكثر قربا من الحقيقة أملا في بناء علاقات سياسية أكثر توازنا. ولنقرأ ما كتبه زياد عبد الله الدريس رئيس تحرير مجلة المعرفة السعودية في تقديمه لكتاب "صورة العرب والمسلمين في مناهج الدراسة حول العالم" يقول: "كان الحديث دوما والتلاوم المتبادل بين عالم الشرق وعالم الغرب هو عن الصورة النمطية في وسائل الإعلام.... المحايدة حينا والمتحيزة أحيانا. حتى ظهر بشكل بارز – وضمن الآثار الانسحابية لوباء ١١ سبتمبر – الحديث عن الصورة النمطية في المناهج الدراسية. هذه المرة تغير اتجاه الشكوى فهي تأتي من الغرب للشرق...... الغرب يشتكي من أن الصورة النمطية لـه في مناهجنا هي التي أفرزت ١١ سبتمبر وما بعده وقد يكون محقا في شكواه إلى حد ما، فمناهجنا لا تخلو من التحيز أحيانا والخطاب التعميمي غير الدقيق...... نحن هنا نطرح سؤالا مشروعا كان ينبغي إطلاقه منذ أن انطلقت الحملة الغربية على مناهجنا مفاده: وما هي صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم؟ "

صورة العرب والمسلمين في المناهج الأمريكية:

الدراستان الأوليان في الكتاب تتناولان صورة العرب والمسلمين في المناهج الأمريكية الأولى كتبها سليمان قناوي تحت عنوان: "الدراسات العلمية تؤكد أن الصورة قاصرة.. سطحية.. متحيزة.. سلبية" وفيها يحاول تتبع هذه الصورة السلبية منذ منتصف القرن الماضي حيث يذكر ميخائيل سليمان أستاذ العلوم السياسية بجامعة ولاية كنساس أن الشرق الأوسط حتى الحرب العالمية الثانية كان محمية أوروبية وكانت الولايات المتحدة بشكل عام تنزل عند إرادة الحلفاء الأوروبيين في تعاملها مع المنطقة. كذلك كانت النظرة الأمريكية إلى

الشرق الأوسط وشعوبه موروثة عموما عن أوروبا.

والغريب أن التلفزيون الأمريكي كان - قبل الحرب العالمية الثانية - يعتبر اليهودي "الوغد العالمي" وكانت صورته أنه "ذلك المراوغ.. الفاسد.. المرتشي.. والفوضوي الشره للمال".

ولكن منذ الحرب العالمية الثانية ولبروز الولايات المتحدة كقوة عظمى ذات مصالح أساسية وبالتالي ذات حجم كبير في الشرق الأوسط نظرت أمريكا إلى العرب والعروبة (التي يتم تعريفها على نحو غير واضح) كتهديد لمصالحها. ولذا تم نقل الصفات السيئة والصورة البغيضة من اليهودي العربي، وأصبح رمز الشر العربي الذي يرتدي العباءة والكوفية لا اليهودي الذي يرتدي القلنسوة.

ويذكر الدكتور أديب خضور في كتابه "صورة العرب في الإعلام الغربي" أن الاستشراق وجد في المناهج الدراسية المقررة على الطلاب الأمريكيين في المراحل المختلفة وسيلة فعالة لتشكيل وعي الأجيال وتصوير العرب كشعب بدوي مغرم بالغزو والنهب والسلب.. والعربي "وثني كافر" و"الإسلام ديانة غير متسامحة" انتشرت - فقط - بحد السيف.

ويستعرض الباحث عددا من الصور الذهنية السلبية عن العرب والمسلمين في الكتب الدراسية الأمريكية بشكل عام وأهم ملامحها:

- أثرياء كبار يشترون أمريكا ويتسببون في ارتفاع الأسعار لا سيما العقارات.
- يكرهون الغرب ويشكلون خطرا.. والمسلمون يكرهون المسيحيين.

- "أوبك" مرادفة للعرب ودائما تستخدم للإيحاء بمدلول سلبي.
- العرب أعداء العالم ومثيرو الحروب.
- المعالم البصرية لصورة العربي والمسلم هي: "رقص هز البطن"، ولباسه "الكوفية والعقال" والعباءة للرجال والحجاب للمرأة. يضاف لهذه المعالم البصرية: أبار النفط وسيارات الليموزين الطويلة والنظارات الشمسية السوداء.

وقد عبر عن ذلك أفضل تعبير نيكولاس فون هوفمان الصحفي بجريدة واشنطن بوست حين قال: "لم تشوه سمعة جماعة دينية أو ثقافية أو قومية ويحط من قدرها بشكل مركز ومنظم كما حدث للعرب".

وبالعودة إلى الدراسات التي تمت لكتب المدارس الابتدائية والثانوية الأمريكية نجد بداية أن هذه الكتب، وبخاصة ما يتناول منها العلوم الاجتماعية والإنسانية، تعد مصدرا أوليا يستمد منه الطالب مواقفه واتجاهاته إزاء كثير من الجماعات العرقية المختلفة فهذه الكتب تزود الطلاب بما يحتاجون إليه من معلومات عن التاريخ والحضارات. ويمثل المدرسون العنصر الآخر في عملية التعليم، ليس فقط بتلقين المعلومات، بل بما يقدمونه من تفسيرات وما يختارونه من نصوص وما يولونه اهتماما خاصا من موضوعات. كل ذلك يؤثر في نظرة الطالب الثقافية لنفسه وللجماعات العرقية الأخرى. ويتبين من الدراسات المتعلقة بعملية التشكيل الاجتماعي أن التعليم المكتسب في المدرستين الابتدائية والثانوية له تأثير دائم ويمكن إرجاع المواقف التي يتخذها الكبار تجاه جماعات معينة إلى التجارب التربوية الأولى.

وكما يؤدي التعليم المقصود لتعزيز المواقف الإيجابية كذلك يمكن أن تنشأ

Obeikandl.com

الصور النمطية عن الشعوب الأجنبية من أخطاء الحذف أو التحريف خلال التعليم. ويرى عالم التربية لوثر إيفانز أن: "الكتب المدرسية والمدرسين يمكن أن يكونوا بمنزلة البذرة لحصول من التفاهم الدولي والصداقة الدولية من خلال عرض الحقائق عرضا صحيحا من الناحيتين الكمية والنوعية وبمنظور سليم. ويمكن أيضا أن يكونوا بذرة لحصول من سوء التفاهم والكراهية والازدراء بين – وتجاه – أنماط الحياة الأخرى من خلال عرض المقولات غير الدقيقة وغير المتوازنة بوصفها حقائق".

ويورد الباحث سليمان قناوي نتائج ثمان دراسات تناولت صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية في الولايات المتحدة وكندا كما تناولت دور المدرسين في صناعة هذه الصورة، الدراسة الأولى: "تناول الشرق الأوسط في كتب المدارس العليا الأمريكية" للباحث جليد بيري وتقوم على تحليل مضمون ٢٠ كتابا مدرسيا تستخدمها المدارس الثانوية الأمريكية بمرحلتيها وجاءت النتائج كالتالي:

- خصص من ١٥ - ٢٥ صفحة في المتوسط للشرق الأوسط في نص يتألف من ٧٠٠ إلى ٩٠٠ صفحة.
- جاءت معالجة وتفسير الإسلام خليطا من المواد الدقيقة والمبهمة والمفتقرة للاستيعاب الكامل. وهناك تأكيد صورة القرون الوسطى والإسلام كدين غير متسامح. وأحيانا يوصف القرآن بأنه من جمع النبي صلى الله عليه وسلم. غير أن الكتب تشرح أفكار النبي وحياته شرحا صحيحا بصفة عامة.
- تخلط معظم الكتب بين العرب والمسلمين ولا توضح أن نمط الحياة البدوية يمثل الاستثناء لا القاعدة في المنطقة.

- تخلو الكتب من أي نقاش لأسباب معارضة الفلسطينيين والعرب للصهيونية وإسرائيل.

الدراسة الثانية: "سوء الفهم عند التعامل مع العالم العربي في كتب أمريكية مختارة للأطفال" للباحثة عدوية العلمي، وهي أول دراسة منهجية تتصدى بالكامل لصورة العرب والمسلمين في كتب المرحلة الابتدائية وهي في الأصل رسالة ماجستير بجامعة أيوا بولاية أوهايو. وقد قامت الباحثة أثناء دراستها بجامعة ولاية كنت بزيارة كثير من المدارس وألقت محاضرات عن الوطن العربي في ولايات عديدة فاكتشفت أن المعلومات المتاحة عنه غير دقيقة بل مشوهة وهو ما دفعها لإنجاز دراستها. الدراسة شملت ٥٨ كتابا مدرسيا يستخدمها المدرسون في الصفوف المختلفة في شمال شرق أوهايو من رياض الأطفال حتى الصف التاسع وشمل عرض النتائج موضوعات: حياة البدو، الزراعة، حياة المدنية، التعليم، الدين الإسلامي، إسرائيل والوطن العربي، الوطن العربي بالصور، وتطور القومية العربية.

وقد سيطرت على العرض موضوعات البداوة وألقت ظلالها على جوانب الحياة العربية الأخرى ويصدق ذلك على النصوص والصور، وشوه الدين الإسلامي فتركز الاهتمام على ما يسمى "الروح القتالية" وأهملت العقائد إهمالا تاما. وتتشابه النتائج إلى حد كبير في بقية الدراسات.

تأتي الدراسات التي تتناول المدرسين على القدر نفسه من الأهمية بوصفهم العنصر التالي في الأهمية بعد المناهج مباشرة. الدراسة الأولى: "سوء تناول العالم العربي في عدد من الكتب المختارة لأطفال الولايات المتحدة" للباحثة عدوية العلمي ويحتوي الجزء الأول منها على تحليل نتائج استبيان أجاب عنه ١١٧٥ مدرسا.

الدراسة الثانية: "الشرق الأوسط في كتاب العلوم الاجتماعية بالمدارس الكندية" للباحث كيني ويتضمن نتائج ١٢٦ استبيانا أجاب عنها حوالي ١٤٠٠ مشترك في المجلة الكندية للتاريخ والعلوم الاجتماعية، وتبين من النتائج أن المدرسين تلقوا تدريبا قليلا أو أن خبرتهم المكتسبة بشأن الشرق الأوسط ضئيلة وغالبيتهم تعتمد بشكل مطلق على معلومات الكتب المدرسية.

ونصف من أجابوا على الاستبيان يشعرون أن معلوماتهم عن الشرق الأوسط متوازنة غير أن ٦٠ % منهم يرون الكتب الدراسية تميل نحو اليهود، و٤٨ % منهم يرون المعلومات تميل نحو إسرائيل. وتبين من النتائج أيضا أن المدرسين يربطون جماعات معينة بصفات معينة، فيرتبط العرب بصفات: الوحشية وعدم التمدن والبداوة والتخلف وعدم التنظيم والوقوف ضد إسرائيل. وربط اليهود بصفات التدين وحب التملك والعدوانية والصلف.

الدراسة الثالثة: "الشرق الأوسط في مناهج التعليم بالمدارس الأمريكية العليا" للباحث مايكل سليمان واستندت الدراسة إلى استبيان كان قد أرسل إلى عام ١٩٧٢ إلى ٤٢٥ مدرسا بالمرحلة الثانوية في كنساس استجاب له ١٧١ مدرسا (٤٠,٢ %). وقد أظهرت النتائج ما يلي:

١ - الشرق الأوسط "أرض غير معروفة" لنسبة ٦٦% ممن استجابوا.

٢ - ٦٣ % يشعرون أنهم لم يتلقوا تدريبا كافيا لتدريس هذه المادة

٣ - ١٦ % منهم تلقوا دورة تدريبية واحدة

٤ - ١١ % تلقوا دورتين

٥ - ٦ % تلقوا ثلاث دورات فأكثر.

وعن المواد الدراسية تبين النتائج أن غالبية المدرسين يختارون النص بأنفسهم وعجز ٨٨ % منهم عن ملاحظة التحيز في الكتب المدرسية وإن شعروا بأن المعلومات غير كافية مع إفراط ملحوظ في التعميم. ومما له دلالة أن الباحث اكتشف أن كونه يحمل اسما شرق أوسطي كان سببا في استجابات أقل موضوعية رغم تأكيدهم أن إجاباتهم موضوعية!

الدراسة الثالثة: "الصورة الموجودة لدى الأمريكيين عن شعوب الشرق الأوسط: التأثير في المدارس العليا" للباحث مايكل سليمان وقد استخدم الاستبيان نفسه الذي استخدمه في الدراسة السابقة ووزعه في المدارس الثانوية في أماكن أخرى. وتبين النتائج وجود التحيز القوالب الجامدة ومعظم المدرسين نقصهم الوعي بها. ولم نحو ثلث المستجيبين عن آرائهم وآراء طلبتهم في شعوب الشرق الأوسط، وباستثناء اسم الباحث وتأثيره في موقفهم فقد كان عدد البرامج الجامعية التي تلقاها المستجيبون أهم عامل في تفسير استجاباتهم، فالمدرسون الذين تلقوا قدرا أكبر البرامج كانوا أكثر ميلا لبيان وجود تحيز وتشويه في المادة. وعموما كانت النظرة إيجابية إلى قدماء المصريين مقابل نظر سلبية للمصريين المعاصرين، أما الإسرائيليون فيرتبطون عندهم بصفات تدعو للإعجاب مثل قوة العزيمة والذكاء، وكان رأي الطلبة في الفلسطينيين أنهم إرهابيون بينما يراهم المدرسون ضحايا سيئو الحظ.

الويل للمنصفين:

تحت هذا العنوان يرصد الباحث سليمان قناوي الحملات المكثفة التي تشنها المنظمات الصهيونية على كل من يحاول أن يكون منصفا أو موضوعيا حتى في الجامعات الأمريكية، حيث وصل الأمر إلى حد تهديد من يعتبرون ناقدين

لإسرائيل ومؤيدين للعرب، وقد ساء الأمر إلى حد قيام اللجنة الإسرائيلية الأمريكية (إيباك AIPAC) بتوزيع لائحة بأسماء من وصفتهم بأنهم معارضو إسرائيل و"مروجو دعايات مؤيدة للعرب" في الجامعات الأمريكية وهي لائحة قام بتوزيعها على أعضائه "المكتب الإقليمي لنيو إنجلاند التابع لحلف مقاومة الافتراء" (بناي بريث) (New England Regional Office of the Anti - defamation, League of B,ani B,irth). وكرد فعل مباشر لهذا السلوك وأمثاله فإن " مؤسسة دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية" (MESA) أصدرت قرارا يدين "تنظيم أو تخزين أو ترويج اللوائح السوداء" أو "أية دراسات تدعو إلى مقاطعة الأشخاص أو الفئات الأكاديمية أو اضطهادها أو نبذها بما من شأنه أن يخلق جوا من التهديد".

وبالإضافة لذلك مورست ضغوط عنيفة ونظمت حملات دعائية ضد إنشاء برامج عربية في الجامعات بحجة أنها ستكون ضد بحجة أنها ستكون ضد إسرائيل وستتعاطف مع العرب، وبالتالي كان على "مركز الدراسات العربية المعاصرة" (Center for Contemporary Arab Studies) في جامعة جورج تاون و"معهد الدراسات العربية والإسلامية المعاصرة" (Institute for Contemporary Arab and Islamic Studies) في جامعة فيلانوفا أن يبذلا جهدا كبيرا ليستمرا. وعموما ينظر للعرب الأمريكيين بوصفهم "متحيزين" ويتم استثناؤهم من إلقاء المحاضرات في الجامعات والهيئات العامة وهو موقف يستهدف منع تقديم الأصوات العربية كمصادر صحيحة للمعلومات.

وحسب دراسة "اللجنة العربية لمكافحة التمييز" (ADC) فإن الصور النمطية للعرب والمسلمين تنقسم إلى:

opendkandil.com

أولا: الصور النمطية العامة وتصف العرب جميعا بأنهم: "راكبو جمال"، "عبيد الرمال"، "كل العرب مسلمين وكل المسلمين عرب"، "القبيلة"، "البدو"، "الحريم".

ثانيا: صور نمطية عن العالم العربي ومنها: "ساحة تنافس يعيش فيها الأبطال الغربيون مغامراتهم العاطفية"، "ألف ليلة وليلة"، "الجن"، "البساط السحري".

ثالثا: صور نمطية عن المسلمين: "سفاحون"، "إرهابيون"، "محاربون"، "مغتصبون"، "مضطهدون للمرأة"، "الحرب المقدسة".

رابعا: صور نمطية عن الفلسطينيين: "يحاولون تدمير إسرائيل وإغراقها في البحر"، "مفجرو طائرات"، "إرهابيون".

خامسا: صورة العرب الصالحين: "شخصيات ثانوية دونية"، "سلبيون"، "قلما يكونون أبطالا".

سادسا: صورة الرجل العربي: "شيخ بترول"، "ثري جدا"، "مسرف"، "يريد شراء أمريكا بماله"، "طماع"، "قذر"، "غير متعلم"، "غير أمين"، "ديكتاتور"، "يكره اليهود والأمريكيين"، "فاسد"، "عنيف"، "خائن"، "بربري"، "عنده خطط سرية لتدمير أمريكا"، "قاس"، "مخادع"، " عصبي المزاج"، "غير عقلاني"، "يخطف النساء الشقراوات الغربيات".

سابعا: صورة المرأة العربية: "مضطهدة من الرجال العرب والمسلمين"، "راقصات عاريات"، "حريم مترفات"، "سيدات جميلات يقعن في حب الرجل الغربي الذي ينقذهن من شر الرجل العربي"، "أسيرات المنازل"، "غير متعلمات".

opeikandi.com

غير أن تناول الصورة النمطية لا يكفي وحده لتقديم صورة منصفة عن الجهود التي تبذلها منظمات مختلفة لتحسين الصورة، وبعد استعراض نماذج لهذه الجهود يحدد الباحثان السبيل الأمثل لتحسين الصورة فيقرران أن هناك العديد من الفرص المتاحة أمام العرب والمسلمين ويمكنهم تحقيق ذلك بالسير على خطوات الأقليات الأمريكية الأخرى التي نجحت في تحقيق الهدف نفسه قبل ذلك. ويقرران أيضا أن جزءا من مسئولية تدهور صورة العرب والمسلمين يقع على عاتق العرب والمسلمين بسبب تقصيرهم في استخدام الوسائل المتاحة لتحسين صورتهم، ويتطلب ذلك العمل على مستويات عدة، **أولا**: مستوى عمل المنظمات التربوية من خلال تأسيس مجموعة من المؤسسات العربية والأمريكية داخل أمريكا تكون قادرة على العمل في موضوعي المناهج والمدرسين. ويشمل عمل مثل هذه المؤسسات توفير الوسائل التعليمية المرئية والمسموعة والمقروءة وتوفير الخبراء عن الإسلام والمسلمين وإنشاء مدارس ومراكز تعليمية عربية.

ثانيا: يحتاج العرب والمسلمون لمزيد من النشاط على مستوى الحقوق المدنية لتسجيل أي تمييز ضد الطلاب العرب والمسلمين والمؤسسات التعليمية العربية والإسلامية. يضاف إلى ذلك العمل على المستويين: الإعلامي العام من خلال التوعية بمضمون وأهداف المناهج التعليمية الإسلامية، والعمل للاستفادة بأقصى الطاقة من الخدمات التي تتيحها الدولة.

صورة العرب والمسلمين في المناهج الفرنسية:

أما صورة العرب والمسلمين في المناهج الفرنسية فتقدمها الباحثة مارلين نصر في كتابها: "صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية" المنشور

بمركز دراسات الوحدة العربية (بيروت ١٩٩٥). وتقرر الباحثة ابتداء أن نصوص الكتب المدرسية في المرحلة الابتدائية لا تفرق بين مفردات ثلاثة هي: "البدو"، "العرب"، و" المور Mooor " وتستخدمها بغير تمييز في الدلالة على الشخصيات نفسها، ويعزز المعجم هذا التماثل إذ يعرف - على سبيل المثال - "البدوي" بأنه: "عربي راحل من الصحراء".

وفي القصص تتسم شخصيات العرب أو البدو بالدونية إذا كانوا تابعين وعندئذ يوصفون بأنهم "مخلصون أوفياء"، أو بطابع عدائي إذا هربوا من نطاق نفوذ الشخصيات الفرنسية وعندئذ يوصفون بأنهم "أعداء متمردون"، "نهابون"، "مخربون" بل "سفاحون"، ويبدو نقص الشخصيات العربية خلقيا وعقليا واقتصاديا ومهنيا عند مقارنتهم بشخصيات فرنسية. ويبدو العربي الطيب استثناء شاذا في الكتب المدرسية. ورغم أن تعليمات وزارة التربية التي أوضحت المبادئ العامة للتعليم الفرنسي تؤكد أنها تهدف إلى "التعرف على الثقافات والحقائق الأجنبية" فإن الصورة المستخلصة من تحليل كتب المرحلة الابتدائية لن تولد لدى التلاميذ إلا صورة مزيفة عن العرب فهي توحي للفرنسيين بإحساس التفوق الطبيعي كما توحي للتلاميذ ذوي الأصل العربي بإحساس سلبي ناشئ من تحقير هم وتشويه صورتهم.

وترصد الباحثة تطور صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية خلال الجمهوريات الفرنسية بدءا من الجمهورية الثالثة (١٧٨٠ - ١٩١٤) حيث كانت مناهجها الدراسية تصف الإسلام بأنه: "دين مسخ ابتكره محمد الذي ادعى أنه نبي" لكن الكتب المدرسية الحالية تبدي احتراما أكثر للإسلام وتقدمه كدين توحيدي عالمي، وإن كانت تتفق مع كتب الجمهورية الثالثة في تصوير الإسلام كدين

عسكري. وتتفق كتب المرحلتين في إبراز دور البطل الفرنسي "تشارلز مارتيل" الذي وضع حدا لاتساع الفتوحات الإسلامية في الغرب. ويمكن تقسيم كتب الناشرين إلى مجموعتين:

- مجموعة تلتزم موقفا إيجابيا ويمثلها الناشران "هاشيت" و"بورداس"
- مجموعة تلتزم موقفا سلبيا أحيانا باردا وأحيانا عدائيا ويمثله الناشر "ناتان"
- وبينهما يقف الناشر "بيلان" موقفا وسطا

وتتناول الكتب المدرسية - باستثناء كتاب واحد - القضية الفلسطينية انطلاقا من تأييد إقامة إسرائيل وهذا التناول يتجاهل وأحيانا يضفي عليهم طابعا سلبيا. فمثلا تحت عنوان "مولد إسرائيل" يرسم أحد هذه الكتب صورة فلسطين تحت الاحتلال البريطاني أرضا بلا شعب. ولا يظهر العرب في هذا النص إلا عند إبرازهم "كعرب معادين" ويستخدم النص عدة وسائل لإضفاء الشرعية على وجود إسرائيل، بل إن أحد هذه الكتب يتهم العرب صراحة بالتواطؤ مع النازية واستهداف دولة إسرائيل التي كانت على وشك أن تولد: "... نشأت منذ البداية مجابهات دموية بين اليهود والعرب أخذت تتصاعد عام ١٩٣٣ عندما تلقى العرب مساعدة النازيين، أصبح الكيان الصغير يتلقى من جميع الجهات هجمات الدول العربية التي عقدت العزم على منع مولده".

أما الكتاب الوحيد غير المنحاز لإسرائيل فيلقي المسئولية عن المشكلة الفلسطينية على عاتق الإمبريالية الغربية حيث ذكر أن: "أطماع كل من لندن وباريس دفعتهما إلى تقديم وعد للصهاينة بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين". وبتحليل نصوص الكتب نجد أنها تنقسم إلى قسمين:

الأول: كتب بورداس وهاشيت وبيلان ونظرتها منحازة حيث تصف

الإسرائيليين بصفات إيجابية مثل:

أراد التفاوض - بنى - عمل - دافع عن النفس - قاوم - رد بالمثل - استرد الأرض - انتصر على الدوام.

أما الجانب العربي فينسب إليه من الأفعال: رفض - اعتدى - دمر - امتنع - أجبر على - هاجم - ضم - انهزم بصفة دائمة.

الثاني: كتب ناتان وهي أقل تحيزا وتعد "استثناء".

صورة الإسلام والمسلمين في إسبانيا:

تعتبر صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية الإسبانية حالة معبرة عن العلاقة بين البناء السياسي للدولة والثقافة السائدة في المجتمع وبين درجة قدرة هذا المجتمع على قبول الآخر، ففي الثلاثينات كانت إسبانيا جمهورية شيوعيةوفي هذه المرحلة تم انتزاع حق التعليم والإشراف عليه من الكنيسة وإسناده إلى مؤسسات الدولة مع السماح للكنيسة والمثقفين الكاثوليك بالاستمرار في تشويه صورة الإسلام من خلال النشاط الكنسي وقصص الأطفال والكتب المتداولة. ولما كانت إسبانيا آنذاك جمهورية شيوعية ماركسية ملحدة فقد عزلت الكنيسة عن الحياة العامة وحذفت تعاليمها من مناهج الدراسة لتحل محلها مناهج إلحادية معادية للأديان السماوية كلها، وعلى مستوى الثقافة الشعبية كانت هناك حايات وأمثال تعمق الكره لكل ما ليس كاثوليكيا.

ثم إن المراجع اللغوية من معاجم وموسوعات لم تغير التعريفات النحرفة والتشويهات المتعمدة ومن أكثرها بشاعة ما ورد في قاموس: de Tscoro Lengua Castellana. Edicion. S. A. حيث يعرف القرآن بما يلي: "هو ذلك الكتاب اللعين المليء بالسخافات الذي ألفه محمد بمساعدة الأريسي الكافر يحي الأنطاكي

وعالم الرياضيات اليهودي أشكول. وهذا ما يجمع عليه المؤرخون الذين تناولوا حياة ذاك الشري الفاسد المسمى (محمد)". وفي دراسة للمستشرقة الغرناطية إميليا ألونوس على ٢٧ معجما و٧ من الموسوعات المؤلفة خلال حكم فرانكو حول اثني عشر مفردة من المفردات ذات العلاقة بالإسلام انتهت إلى أنها جميعها ذات قيمة ثقافية ضحلة ومعان قذعية.

ومع التحول الديموقراطي بصدور دستور ١٩٧٨ بدأت مرحلة جديدة لكن التحول بقي حبرا على ورق حتى عام ١٩٩٢ عندما وقع الملك خوان كارلوس مع ممثلي الجالية الإسلامية اتفاقية تنظم تعليم الدين الإسلامي فتحولت المناهج إلى وضع أفضل بكثير مما كان في الحقبة السابقة.

صورة الإسلام والمسلمين في ألمانيا:

حسب دراسة رائدة أنجزت في الفترة من ١٩٨٢ - ١٩٨٨ بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الجواد فلاتوري بمعاونة ٤٤ من المتخصصين الغربيين والكثير من المسلمين بالتعاون مع الأزهر وتم فيها تمحيص محتوى ٣٥٩ كتابا مدرسيا في الدين والتاريخ والجغرافيا وصدرت نتائجها في ١٢٠٠ صفحة ولم يطبق حرف مما نادت به من توصيات ولم تتبعها دراسات أخرى. فإن هناك نماذج صارخة للتشويه الذي تتعرض له صورة الدين الإسلامي في مناهج الدراسة، ففي كتاب التربية الدينية المقرر على الصفين السابع والثامن في إحدى الولايات الألمانية نجد معلومات مثل:

* "كل مسلم مكلف بمقاتلة أعداء الإسلام الذين لا ينصاعون للقرآن"

* "أهداف الحج هي تقبيل الحجر الأسود والحق في ارتداء عمامة خضراء أو حمل لقب حاج وانتهاء موسم الحج بوجبة فاخر في مكان يدعى ميكا"!

* ومقدار الزكاة ١٠ %

* بعثة عيسى عليه السلام لم ترد في القرآن

ولتوضيح وضع العرب في الجاهلية يتم من خلال حوار بين عربي جاهلي ساذج ويهودي حكيم متعلم، الأمر الذي يؤثر بطريقة غير مباشرة في موقف التلاميذ من القضية الفلسطينية. وفي كتاب آخر توجد صورة كتب تحتها "محمد يتلقى الوحي من جبريل!. وفيه مزاعم مثل أن تحويل القبلة من القدس لمكة سببه خلاف بين النبي واليهود، وينسب الكتاب الطائفة "الأحمدية" للإسلام وينقل عنها ضرورة الإيمان "برسل الله كلهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وبوذا وكريشنا، ومحمد".

وتكشف الدراسة عن وجود معلومات صحيحة يبلغ حجمها أضعاف المعلومات المحرفة وهناك أيضا رد على مقولة أن المسلمين عدوانيون ودعوة لاحترام عقيدة زملائهم المسلمين وزيارة مساجدهم وعدم أخذ صورة الإسلام من غير أهله. من ناحية أخرى يلفت الباحث النظر إلى حقيقة أن المناهج الدراسية الألمانية مهمتها الأولى نقل الرؤية المسيحية عن الإسلام والمسلمين ولا مصداقية لمطالبتهم بتبني الرؤية الإسلامية، وما تجب المطالبة به هي الموضوعية في التناول وهي متحققة في بعض الكتب فعلا.

وبسبب التمايز الواضح الذي أشرنا إليه في الأسس الثقافية للنموذجين المعرفيين الأمريكي (الإنجلوفوني) والأوروبي (الفرنكفوني) والمتمثل في القطيعة شبه التامة مع الدين ومن ثم "الآخر الديني" في النموذج الأوروبي وفي المقابل التصالح مع الدين في النموذج الأمريكي والاستعداد المبدئي لقبول "الآخر الديني" فيه، فإن الثقافة الأوروبية نشأ فيها مؤخرا لأول مرة مفهوم

التعدد الثقافي على يد عالم أمريكي طبق الفكرة للمرة الأولى في استراليا التي تخلت عن فكرة الأحادية الثقافية من خلال قناة تلفزيون أنشأتها وزارة التعليم تبث بعشرين لغة بينها العربية.

صورة العرب والمسلمين على شاشة هوليود:

في العصر الحديث شكلت السطوة المتزايدة لوسائل الإعلام ولم تزل سمة من سمات العصر حتى دخلت البشرية ما يطلقون عليه "عصر الصورة"، حيث تختصر الأفكار والمفاهيم على الشاشة الفضية. ويبلغ دور وسائل الإعلام المرئية من الأهمية حد وصف هوليود بأنها أحد أهم وسائل الولايات المتحدة للسيطرة على العالم وإعادة صياغة عقول البشر بلغة الصورة. وحسب الخبير جاك شاهين في كتابه: "العرب السيئون: كيف تشوه هوليود شعبا" وهو متخصص في هذا الموضوع أصدر فيه عدة كتب مثل: "الصورة النمطية السيئة للعرب والمسلمين في الثقافة الشعبية الأمريكية"، و"صورة العرب في التلفزيون الأمريكي" وغيرهما. وهو أستاذ فخري لعلم الاتصال بجامعة إلينوي، ومستشار سابق لشئون الأنباء بشبكة سي. بي. إس. وكتابه المشار إليه حصيلة عقدين من البحث تتبع خلالها المؤلف أكثر من تسعمائة فيلم رتبها وفق الأبجدية الإنجليزية بدءا من عهد السينما الصامتة حتى عام ٢٠٠١.

وحسب جاك شاهين فإن هوليود دأبت منذ ما يزيد على قرن من الزمان، على استخدام التكرار كأداة للتعليم حيث تقوم بتلقين المشاهدين مرارا وتكرارا، ومنذ عام ١٨٦٩ أجمع صناع السينما في هوليود على اتهام العرب بأنهم العدو المشترك للغرب وصوروهم:

متوحشين

قساة القلوب

أغراب

متعطشين للمال

قتلة

مغتصبين

لا أخلاق لهم

متعصبين دينيا

متبلدين

وخلال ما يزيد على قرن من الزمان تغيرت أشياء كثيرة في العالم وفي المجتمع الأمريكي وفي هوليود نفسها، بينما بقيت صورة العرب والمسلمين، بل الإسلام نفسه كما هي.

ففي فيلم "الشيخ يتعبد" الذي عرض عام ١٩٣٧ تقول بطلة الفيلم الأمريكية ساخرة: "إن العرب جميعهم متشابهون في نظري"، وفي فيلم "الكوماندو" الذي عرض عام ١٩٦٨ يقول بطل الفيلم الجملة نفسها، وبعد ذلك بعشرات السنين لم يتغير شئ، ففي فيلم "الرهينة" الذي عرض عام ١٩٨٦ ترد عبارة مشابهة على لسان ممثل كان يقوم بدور سفير أمريكي، يقول "إنني لا أستطيع أن أميز عربيا من عربي آخر". ولا يظهر العربي في السينما الأمريكية أبدا شخصا عاديا يعمل عشر ساعات ويعود إلى بيته فيعيش حياة اجتماعية طبيعية مع أسرته، فهم دائما إرهابيون مهووسون، أو خاطفو طائرات، أو بدو يركبون الجمال، أو شيوخ نفط يشتهون النساء الشقراوات ويعقدون صفقات السلاح وفي نيتهم السيطرة على

العالم.

وفي مقابل الصورة النمطية المشوهة يحاول جاك شاهين أن يرسم لقارئه (الكتاب صادر في كندا بالإنجليزية) صورة قريبة من الحقيقة للإنسان العربي تحت عنوان: "العرب الحقيقيون" مشيرا إلى ما قدمه العرب في مسيرة الحضارة الإنسانية من منجزات، ثم يصف جانبا من واقع المجتمعات العربية - كما رآها بنفسه - في جولاته التي شملت خمس عشرة دولة عربية، مشيرا إلى أن أسلوب حياة هذه المجتمعات يتحدى الصورة النمطية التي يرسمها لهم منتجو أفلام هوليود. ورغم أن العرب يمثلون ١٢ % فقط من المسلمين فإن هوليود تختصر صورة العالم الإسلامي كله في صورة مشوهة للعرب، ويلعب التكرار هنا دورا كبيرا في ترسيخ الأفكار في أذهان المشاهدين.

* * * * *

openikandl.com

تغييب العرب الأمريكيين

وتحرص هوليود على تغييب العرب والمسلمين الأمريكيين رغم أنهم جزء من المجتمع الأمريكي منذ فترة طويلة ن وهذه الاستراتيجية سبق أن اتبعتها هوليود في الماضي مع الأفارقة الأمريكيين والهنود الأمريكيين واللاتينيين الأمريكيين إذ غيبتهم تماما بشكل أثر سلبا في حياة هذه الأقليات. ويحذر جاك شاهين من أن نزع الناس من سياقهم الإنساني تربة خصبة بل ربما كانت سببا في اضطهادهم، فبعد أن شوهت هوليود صورة الآسيويين شهد عام ١٩٤٢ أن تم تشريد أكثر من مائة ألف من الأمريكيين المنحدرين من أصل ياباني من مساكنهم وسرقت ممتلكاتهم. والأمر نفسه حدث مع الزنوج مع اختلاف في التفاصيل.

وإذا كان للأساطير فعلها في أي مجتمع فإن أساطير هوليود السينمائية تحكم الثقافة الشعبية الأمريكية، وبسبب التأثير الضخم لهوليود عالميا بوصفها أكبر مصدر في العالم في هذا المجال، فإن هذا الأثر السلبي ازداد خلال العقود الأربعة الماضية بدرجة كبيرة. وفي متوالية لا تكاد تتوقف بدأت هذه الصورة المشوهة تصل إلى صناع السينما في دول أخرى عديدة، كما أصبحت هذه الأفلام ضيفا دائما في محطات التلفزيون في معم أنحاء العالم، وبفضل التقدم التقني أمكن إعادة نسخ الأفلام الصامتة في نسخ حديثة ليستمر عرضها ويستمر تأثيرها، .... وهكذا.

ومنذ منتصف الثمانينات يظهر على شاشات التلفزيون في الولايات المتحدة كل أسبوع ما بين خمسة عشر وعشرين فيلما يعاد عرضها تقدم العرب بصورة مبالغ فيها، منها:

فيلم "الشيخ" (١٩٢١)

وفيلم "المومياء" (١٩٣٢)

وفيلم "القاهرة" (١٩٤٢)

وفيلم "المرأة الحديدية" (١٩٥٣)

وفيلم "الخروج" (١٩٦٠)

وفيلم "الحصان الأسود" (١٩٧٩)

وفيلم "البروتوكول" (١٩٨٤)

وغيرها كثير.

وفي الحقيقة فإن الوعي بدور وسائل الفن في التأثير في وجدان الشعوب وعقولها قديم، ففي جمهوريته المثالية أكد الفيلسوف اليوناني القديم أفلاطون أن من يروون القصص يحكمون المجتمع، والأفلام السينمائية شأنها شأن القصص يستمر تأثيرها طويلا وتسهم في تكوين أفكارنا ومعتقداتنا، وأن الأوان لأن ندرك أن معلمي أطفالنا هم في الحقيقة صناع الأعمال الدرامية لا معلمي المدارس. ولذا فإن العرب وهم ساميون مثلهم مثل اليهود إلا أن الفريقين ظلا لفترة طويلة موضوع تشويه متعمد من هوليود، ولم يؤد تحسن صورة اليهود في أفلام هوليود إلى تحسن صورة العرب ومازالوا حتى الآن ضحية عمليات التشويه.

وقد لعب الصهاينة دورا كبيرا في تكريس هذا الواقع وكان لثقلهم النسبي الكبير في هذا المجال دور كبير في ازدياد حجم الظاهرة، وفي عام ١٩٨٢ ظهر منتجان سينمائيان من أصل يهودي تدفعهما أهداف سياسية، هما مناحم

obeikandl.com

جولان ويورام جلوباس. أما يورام جلوباس فكان قد تم تعيينه في العام نفسه مديرا لإدارة صناعة السينما في الكيان الصهيوني وهي الجهة التي ترصد كل أفلام السينما التي تنتج في الكيان الصهيوني، وقد عاد جلوباس للولايات المتحدة مرة أخرى وأسس مع مناحم جولان شركة إنتاج سينمائي أمريكية مشتركة هي "كانون".

ومن خلال هذه الشركة عمل الشريكان كما لو كانا جنودا في "فرقة العاصفة"، حيث أمطرا العالم بستة وعشرين فيلما تدعو إلى كراهية العرب وإبادتهم، فمثلا في أفلام: "فرقة الجحيم" (١٩٨٥)، و"القوة المثلثة" (١٩٨٦)، و"شوارع القتل" (١٩٩١) ظهرت فتيات الاستعراض إلى جانب مشاة البحرية وجنود القوات الخاصة الأمريكية وهم يحصدون الفلسطينيين في شوارع لاس فيجاس. أما فيلم "الحصار" (١٩٩٨)، فكان يحرض تحريضا مباشرا على من يعادون السامية التي كانت قد تفشت في الثلاثينات من القرن الماضي.

وفي محاولته تتبع منشأ الظاهرة يرى جاك. ج. شاهين أنها تعود إلى مركب من الأسباب من بينها الربح والمناخ السياسي العام كما أن هوليود تكاد تخلو من الأمريكيين العرب، ولا تستطيع هوليود التي تتمتع بوعي ثقافي حاد أن تستمر في ممارسة ذلك ضد الزنوج واليهود. ومن الحقائق المؤكدة أن عالم الصور الشنيعة التي تقدمها السينما الأمريكية للعرب ينعكس على اتجاهات وسلوكيات المسئولين والعاملين في حقول الإعلام الأخرى. ومن الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة، أن الفترة التي أعقبت قصف المقر الفيدرالي بمدينة أوكلاهوما (إبريل ١٩٩٥) تعرض خلالها الأمريكيون المنحدرون من أصول عربية لما يزيد عن ثلاثمائة جريمة من جرائم الكراهية. وهو ما دفع وزير

الخارجية الأمريكية السابق هنري كيسنجر إلى أن يقول محذرا: "إنه في عصر يتلقى فيه معظم الناس فهمهم للأمور من السينما وليس من الكلمة المكتوبة، فإن تقديم الحقائق يكون مسئولية لا يستطيع صناع السينما التهرب منها، إن عديدا من مشاهدي السينما يعتقدون أن الشخصيات الخيالية التي تقدمها السينما للعرب تمثل عربا حقيقيين".

وصناع السينما لم يبتكروا هذه الصورة السلبية بل ورثوها من كتابات غربية استهدفت العرب والمسلمين والإسلام طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فكانت صورة المنطقة في هذه الكتابات صورة الصحارى المقفرة التي يعيث فيها الفساد والأسواق القذرة...وأثرت قصص "ألف ليلة وليلة" بشكل خاص على المفاهيم الغربية حيث انتشرت في لغات عديدة بدرجة لم يفقها في الانتشار سوى كتاب واحد هو الإنجيل.

وسعيا وراء مضاعفة الأرباح أعاد منتجو هوليود إنتاج نسخ جديدة من الأفلام التي سبق إنتاجها في فترات سابقة من القرن العشرين ففيلم "المومياء" الذي أنتج عام ١٩٣٢ أعيد إنتاجه عام ١٩٩٩، ثم تم استكماله بجزء أخر تحت اسم "عودة المومياء" عام ٢٠٠١، وهو يغص بالشخصيات البغيضة المبالغ في تصويرها. ويصف الناقد الأمريكي أنتوني لين الظاهرة بقوله: "إن الشعب العربي لقي على الدوام من جانب هوليود أسوأ معالجة للأمور المتعلقة به على نحو يتسم بالبعد التام عن تصوير هذا الشعب على حقيقته، ومع انتهاء الحرب الباردة فإن الصورة المشوهة التي سبق تقديمها للشخصية العربية يتم تأكيدها بشكل أسوأ". ورغم هذه الملاحظات اللاذعة فإن شركة يونيفرسال التي أنتجت الفيلم لم تتأثر بها مطلقا عندما أنتجت الجزء الثاني من الفيلم.

وتعالج صورة الإسلام على نحو خاص معالجة غير منصفة من جانب

هوليود ذلك أن صناع السينما دأبوا على الربط بينه وبين الحروب الدينية وأعمال الإرهاب فيصور المسلمون العرب أعداء وأغرابا وداعرين وعقب مشهد لصلاة في المسجد يأتي دائما مشهد يصورهم يقتلون المدنيين وهو ربط يستقر مع التكرار في ذهن المشاهد بشكل لاشعوري. وللنقاد الأمريكيين وصانعي الأفلام التسجيلية الأمريكيين ملاحظاتهم على الصور النمطية التي تقدمها هوليود للمجموعات العرقية الأخرى، فصدرت كتب عن صورة الهنود واللاتينيين والزنوج وغيرهم في أفلام هوليود، والأمر المروع أنه رغم خطورة الصورة التي يظهر بها العرب والمسلمون، وهي تبلغ الغاية في السوء، لا يكاد ذلك يثير اهتماما يصل إلى حد إصدار دراسة عن الظاهرة، أو التعرض لها في الدراسات النقدية التي تغطي فترات محددة من تاريخ هوليود.

وعلى سبيل المثال أصدر أندرو داودي كتابا حول الأفلام الأمريكية التي أنتجتها هوليود في الخمسينات يعد قراءة تفصيلية لواقع الثقافة السينمائية في تلك الفترة، ولكنه لم يشر إلى فيلم واحد من أكثر من مائة فيلم في الفترة موضوع الدراسة كلها يقدم صورة سيئة للعرب. وخلال الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٤ أنتجت هوليود أكثر من أربعين فيلما خياليا تشوه صورة العرب، وعن هذه الفترة أصدر الناقد توماس دوهرتي كتابا أشار فيه إلى أن العنصرية كانت الدافع وراء إنتاج نسبة كبيرة من الأفلام الخيالية التي أنتجتها هوليود خلال الفترة المشار إليها، وتعرض دوهرتي في كتابه للصور النمطية للهنود والأفارقة الأمريكيين والآسيويين الأمريكيين واليهود الأمريكيين، بينما لم يشر إلى صورة العرب إلى الإطلاق.

ومن بين أكثر من تسعمائة فيلم أنتجتها هوليود ظهرت فيها شخصيات

obeikandl.com

عربية لم يعثر إلا على عدة أفلام كانت صور العرب فيها "لا بأس بها". وتنقسم هذه الأفلام إلى نوعين: أفلام تستهدف الكبار مثل: "الخروج" (١٩٦٠)، و"الأحد الأسود" (١٩٧٧)، و"الحصار" (١٩٩٨). وأخرى تستهدف المراهقين مثل: "خمسة أسابيع في بالون" (١٩٦٢)، و"الأمور صعبة في كل مكان" (١٩٨٢)، و"الصحارى" (١٩٨٣)، و"عملية النسر الأمريكي". ويجمع بين هذه الأفلام عنصر واحد يسيطر عليها جميعا هو الصورة التي تبلغ الغاية في الوضاعة والانحطاط التي يتم إظهار العرب بها، وهي صورة يتم تعميمها على مختلف الأعمار، وباستمرار الظاهرة تم تثبيت ملامح هذه الصورة على مر الأجيال.

ومن الحقائق الصادمة أن منتجي هوليود زجوا بصورة تظهر العرب بلا أخلاق في أكثر من مائتين وخمسين فيلما لا علاقة لها بالعرب أو المنطقة العربية على الإطلاق، وقد أسهم في الظاهرة كتاب سيناريو مشهورين مثل ستيفن سبيلبرج وفرانسيس كوبولا وغيرهما. بل إن الوقاحة بلغت بصناع السينما في هوليود حد السخرية من لفظ الجلالة، حيث يخاطب بطل الفيلم أحد العرب باحتقار وازدراء قائلا "الله" قاصدا التشفي، وقد أصبحت الكلمة نفسها متداولة بالإيحاء القدحي نفسه بين مشاهدي هوليود، حيث صاروا يعتقدون أن إله المسلمين وثني قبلي.

ومن خلال بحثه رصد الكاتب خمسة أنماط أساسية تنقسم إليها الشخصيات العربية التي تظهر في أفلام هوليود:

١- الأشرار.

٢- الشيوخ.

٣- الجواري والحريم.

٤- المصريون.

٥- الفلسطينيون.

ويشير جاك شاهين إلى أنه في مئات من الأفلام التي أنتجتها هوليود كان العرب قرين الشر، فبدءا من فيلم "إيمار الخادم" (١٩١٤) حتى فيلم "عودة المومياء" (٢٠٠١) احتل "العرب الأشرار" شاشة هوليود. وفي الأفلام الدرامية يظهر نجوم هوليود هم يناضلون ضد العرب ويلحقون بهم الهزائم المنكرة بين عامي: ١٩١٧ و ١٩٩٩ شارك نجوم كبار مثل: جاري كوبر، وهاريسون فورد، وكيرت راسل، وغيرهم في أفلام من هذا النوع. ومنذ ظهور فيلم "أسيرة البدو" (١٩١٢) وحتى فيلم "رسالة البجع" (١٩٩٣) يسيطر على صورة العرب نمط البدو الذين يحاولون اغتصاب بطلة الفيلم الشقراء، أو خطفها أو قتلها.

أما في الأفلام الكوميدية فيظهر العرب في صورة مهرجين، وبعض من أشهر كوميديانات هوليود يسخرون في أفلامهم من العرب. ومن هؤلاء النجوم: ويل روجرز في فيلم "العمل والمرح" (١٩٣١)، ولوريل وهاردي وبنج كروسي وبوب هوب في فيلم "الطريق إلى مراكش" (١٩٤٢)، وبود أبوت ولوكستللو في فيلم "أبو كستللو في الفرقة الأجنبية" (١٩٥٠) وغيرهم كثيرون. وفي هذه الأفلام يشير الأبطال إلى العرب بوصفهم قردة وكلاب، وتعزز مثل هذه الأفلام لدى المشاهد إحساسا بالاختلاف عن العربي بوصفه "الآخر".

وفي أفلام الحروب كان العرب وحدهم على الدوام هدفا سهلا للنيل منهم، فمنذ عام ١٩١٢ ظهرت عشرات الأفلام تظهر فيها قوات عسكرية: أمريكية أو بريطانية أو فرنسية، ومؤخرا إسرائيلية، وهي تقوم بسحق العرب. فمثلا في فيلم "الدورية الأخيرة" (١٩٣٤). يظهر جندي بريطاني وهو يطلق النار على

بعض العرب قائلا: "هؤلاء العرب الحقراء الأقذار السفلة"!!، وفي فيلم "سيروكو" (١٩٥١) وهو أول فيلم يظهر فيه العرب "إرهابيين" نرى سوريين "متعصبين" وهم يغيرون على جنود فرنسيين.

وفي حوالي عشرة أفلام تم تصوير العرب في صورة من يستعبدون الأفارقة، وفي أربعة أفلام أنتجت بين ١٩٤٩ و ١٩٩٨ تم تصويرهم يقومون بغزو عسكري للولايات المتحدة ويبثون الرعب في كل مكان. وفيما لا يقل عن اثني عشر فيلما تمت صناعتها في الكيان الصهيوني بواسطة شركات يمتلكها إسرائيليون في هوليود، مثل: "النسور يهاجمون عند الفجر" (١٩٧٠)، و"النسر الحديدي" (١٩٨٦)، وفيها يظهر جنود أمريكيون وصهاينة وهم يسحقون "العرب الأشرار".

رغم أن كلمة " شيخ " يقصد بها الرجل الحكيم كبير السن أو رب الأسرة فإن من يشاهد فيلما من أفلام هوليود لن يجد هذا المعنى لا من قريب ولا من بعيد، إذ تبدو هذه الشخصية مقززة في أكثر من ١٦٠ فيلما أنتجت في هوليود. وبدءا من العشرينات كان يتم رسم صورة "الشيخ" على شاشة هوليود بملامح تنم عن الشهوة، ولمزيد من الإثارة والمبالغة التي تحفز الخيال يظهرون وهم يرتدون أثوابا قذرة كالملاءات ويبيتون النية لاقتناص الشقراوات لضمهن إلى "الحريم".

وبدءا من السينما الصامتة، نجد أفلاما مثل: فيلم "العرب" (١٩١٥)، وفيلم "الشيخ" (١٩٢١)، وقد أنتج أكثر من ستين فيلما ما بين صامت وناطق، بدءا من فيلم "السيف والنار" (١٩١٤)، حتى فيلم "بروتوكول" (١٩٨٤) يظهر فيها شيوخ عرب "أجلاف" يتناحرون لاختطاف فتاة شقراء. بل إن أفلام الرسوم

المتحركة "الكارتون" نفسها لم تخل من وصم العرب بالحقارة!! وتؤكد هذه الأفلام أن استغلال الإسلام لتبرير العنف أصبح الآن يشكل خطورة على الغرب والكيان الصهيوني أكثر من ذي قبل. وخلال عقد الثمانينات من القرن الماضي ظهرت أكثر الأفلام تشويها لصورة "الشيوخ"، كما ظهرت خمسة أفلام من هذا النوع تمت صناعتها في الكيان الصهيوني، وكان فيلم "الفردوس" (١٩٨١) الذي أنتجته شركة جولان وجلوباس من أشد هذه الأعمال إساءة في تصوير "الشيوخ".

ويحصي جاك شاهين في كتابه أكثر من خمسين فيلما أنتجتها هوليود وتضمنت إساءات للمرأة، ومنذ عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٨١ كانت هوليود ترسم النساء العربيات في صورة من يستخدمن السحر الأسود لغواية الرجال. أما أزياؤهن فتحمل دلالات عديدة، فبعضهن جواري يرتدين ملابس شفافة لا تكاد تستر شيئا من أجسادهن أو متشحات بالسواد بشكل فيه مبالغة مقصودة.

أما النمط الرابع - المصريون - فيظهرون في أكثر من مائة فيلم محتالين ومتسولين يلهثون وراء "البقشيش". ومما يستحق الاهتمام بشكل خاص مجموعة أفلام أعد سيناريوهاتها المخرج الشهير سبيلبرج من بينها: فيلم "شارلوك هولمز الصغير" (١٩٨٦)، وفيلم "أنديانا جونز والحملة الصليبية الأخيرة" (١٩٨٩)، كما يجدر الاهتمام أيضا بفيلم أنتجته شركة جولان وجلوباس، التي سبقت الإشارة إليها، في الكيان الصهيوني هو فيلم "عملية القاهرة" (١٩٦٥). وفي هذا الفيلم ظهر المصريون مهووسين بالأسلحة النووية موالين للنازية!!.

كما أن ثمة مجموعة من الأفلام تصور "المصريين الأشرار" وهم يحاولون القضاء على "اليهود الأبطال"، مثل: فيلم "الوصايا العشر" (١٩٢٣) لسيسيل دي

ميل، قد ظهر فيه المصريون وهم يضربون اليهود، الذين أطلقوا عليهم وصف "كلاب بني إسرائيل"، كما يظهر ابن فرعون وهو يجلد النبي موسى، وقد أعيد إنتاج هذا الفيلم عام ١٩٥٦. وفيلم "أمير مصر" (١٩٩٨) لجيفري كاتزنبرج. وذكر اسم مصر أمام منتجي هوليود لا يعني سوى شيئين اثنين: "المومياوات" و"المال"، ومنذ أن أنتجت هوليود فيلم "المومياء" (١٩١٤)، وفيلم "غبار مصر" (١٩٢٦) قدمت هوليود أكثر من ستين فيلما عن المومياوات. وفي فيلم "عودة المومياء" (٢٠٠١) بدت صورة المصريين سيئة لدرجة لا يمكن تصورها أو تصديقها.

أما الفلسطينيون فإن أكثر من نصف الأفلام التي عرضتها هوليود عن الفلسطينيين تم عرضه في الثمانينات والتسعينات، فبين عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٩ تم عرض تسع عشر فيلما، وبين عامي ١٩٩٠ و ١٩٩٨ تم عرض تسعة أفلام، ومن يشاهد هذه الأفلام يشعر أن هناك اتفاق عرفي تلتزم هوليود بمقتضاه بتقديم الفلسطينيين جميعا في صورة الأشرار مقابل صورة إيجابية للصهاينة. وفي أول فيلم ظهر بعد إعلان قيام الكيان الصهيوني، فيلم "سيف الصحراء" (١٩٤٩)، ظهرت فلسطين في صورة مطابقة للدعاوى الصهيونية تماما "أرض بلا شعب". وبعد حوالي عشرة أعوام، وبالتحديد عام ١٩٦٠، أعلن الممثل الأمريكي ذائع الصيت بول نيومان الحرب على الفلسطينيين في فيلم "الخروج".

وحذا كثير من نجوم هوليود حذوه، ومنهم: ديفيد جانسن في فيلم "سجين في الوسط" (١٩٧٤) وفيه تشترك قواته مع قوات صهيونية في إطلاق النار على مسلحين فلسطينيين، وفي فيلمي "القوة الثلاثية" (١٩٨٦)، و"مطلوب حيا أو ميتا" (١٩٨٧) تقدم هوليود نجوما مثل لي مارفين وشاك نوريس وغيرهما وهم

ينسفون الفلسطينيين في لبنان ولوس أنجلوس. وفي سبعة أفلام من بينها "أكاذيب حقيقية" (١٩٩٤) تم تصوير الفلسطينيين إرهابيين يستخدمون الغازات السامة والأسلحة النووية. وفي أحد عشر فيلما من بينها "الرعب في بيفرلي هيلز" (١٩٨٨) يظهر الفلسطينيون وهم يعتدون على أطفال غربيين.

ويرى جاك شاهين أنه ينبغي الالتفات بصفة خاصة لفيلم "يوم الأحد الأسود" (١٩٧٧)، لأنه أول فيلم تنتجه هوليود ويصور الفلسطينيين يرهبون الأمريكيين ويقتلونهم داخل الولايات المتحدة نفسها، حيث يظهر فيه فلسطينيون يستهدفون قتل ثمانين ألفا من الأمريكيين ضمنهم الرئيس الأمريكي نفسه. كما أن من الحقائق التي لفتت نظر شاهين أن أكثر من نصف الأفلام التي أنتجتها هوليود عن الفلسطينيين تم تصويرها في الكيان الصهيوني، وفي معظم الأفلام التي تم تصويرها في الكيان الصهيوني - وبخاصة الأفلام السبعة التي أنتجتها شركة كانون - يظهر الفلسطينيون سفلة مهووسين جنسيا يقتلون الغربيين بل رفاقهم العرب.

وفي عام ٢٠٠٠ أخرج الأمريكي ويليام فريدكين فيلم "قواعد الاشتباك" وأسند بطولته إلى الممثل الشهير صمويل جاكسون، وكان الفيلم موغلا في عنصريته إلى درجة إظهار أطفال يمنيين في صورة سفاحين معادين للولايات المتحدة. وخلال الحربين العالميتين والحرب الكورية، رغم ما أديا إليه من حالة من التعصب القومي في المجتمع الأمريكي، لم يظهر في أفلام هوليود قوات أمريكية تذبح أطفالا. ومع ذلك ففي المشهد الختامي يظهر رجال مشاة البحرية الأمريكية وهم يطلقون النار على اليمنيين فيقتلون منهم ثلاثة وثمانين فردا من الرجال والنساء والأطفال.

وخلال هذا المشهد نهض مشاهدو الفيلم الأمريكيون وقوفا وهم يصفقون يهللون!! ويباهي مخرج الفيلم بذلك فيقول: "لقد رأيت جماهير المشاهدين وهم يهبون وقوفا ويهللون إعجابا في كل دور العرض التي عرض فيها في الولايات المتحدة"!!، وحسبما يرى جاك شاهين فإن ذلك لا يرجع إلى افتقار المشاهدين التام للحس الثقافي، بل هو حصاد ما يزيد على قرن من الزمان كان العرب فيه رمز الشر على شاشة هوليود الفضية. ولذا فإن فيلم "قواعد الاشتباك" كرس فكرة كون العرب أعداء للولايات المتحدة بشكل تضمن تعميما شديد الخطورة.

وفيلم قواعد الاشتباك يثير قضية شديدة الخطورة، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها تمثل أخطر المعلومات الواردة في الكتاب، رغم غزارة معلوماته التي تحدث لقارئه الصدمة تلو الأخرى، فمنتج الفيلم أعلن أنه مدين بالفضل لوزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" وسلاح البحرية الأمريكية على ما قدماه من مساعدة. وحتى لا يظن القارئ أن المؤسسة العسكرية الأمريكية تقدم مثل هذه المساعدات بشكل محايد دون أن تخضع مضامين العمل الفني لأي نوع من التقييم، يقدم المؤلف معلومات ونماذج تنفي ذلك تماما. وهناك أربعة عشر فيلما تظهر الأمريكيين وهم يقتلون العرب، كلها يدين منتجوها بالفضل لوزارة الدفاع الأمريكية لما قدمته من مساعدات فنية وبشرية لإنتاج هذه الأفلام.

وفي حقيقة الأمر فإن ليس ضريبة ما تتمتع به هوليود من حرية، فوزارة الدفاع الأمريكية لا تقدم مساعدات فنية لأفلام تسئ إلى شعوب غير العرب، وفي أواخر الخمسينات أحجم مسئولو الوزارة عن تقديم هذا الدعم لفيلم حاول منتجوه أن يقدموا من خلاله صورة نمطية مشوهة لليابانيين. فعندما كان يصور فيلم "جسر نهر كواي" (١٩٥٧) قام دونالد باروتسن، مدير مكتب الإنتاج

السينمائي بوزارة الدفاع الأمريكية، بتحذير منتجي الفيلم من المبالغة في إظهار اليابانيين في صورة عنيفة قائلا: "إن استخدام عبارات تحط من قدر المجموعات العرقية أو القومية أو الدينية أمر يضر بمصالحنا القومية، وبخاصة إذا كانت الأفلام تنتج بمساعدة حكومية".

بينما كان العرب على الدوام - وحدهم - أهدافا سهلة للنيل منهم في أفلام الحرب، من المؤكد أن موافقة وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون على تقديم مساعدات لأفلام حربية تسئ للعرب أحد أهم أسباب استمرار الظاهرة بل تفاقمها. فللحكومة الأمريكية سجل حافل في التدخل فيما يمكن عرضه من أفلام يرجع إلى عام ١٩١٧.

* * * * *

obeikandl.com

الفصل الرابع:

الجذور المعرفية والفكرية

للموقف الأوروبي من الإسلام

معركة الحجاب نموذجا

obeikandi.com

لعل السؤال البدهي الذي لا يطرحه أحد في السجال الدائر في الغرب حول ما يسمى: "معركة الحجاب" هو: لماذا يصبح الحجاب في أوروبا "معركة"؟!!

الرئيس الفرنسي شيراك صدر عنه (٥ ديسمبر ٢٠٠٣) تصريح مهم أثناء زيارته لدولة مسلمة هي تونس العضو النشط في "تحالف أعداء الحجاب" وهو ما يضفي على تصريحه هذا أهمية خاصة، وحسب شيراك فإن الحكومة الفرنسية ذات النظام العلماني الصارم لا يمكنها أن تدع التلميذات يرتدين ما وصفه بأنه: "علامات متباهية للهداية الدينية"، وقال: "في مدارسنا العامة.. الحجاب به شيء عدواني يمثل مشكلة من حيث المبدأ حتى إذا ارتدته أقلية صغيرة". وزادت تصريحات شيراك القلق العام بشأن ما يعتبره الفرنسيون مشكلات مثل: الإسلام وحقوق المرأة وهجرة المسلمين، فعلى سبيل المثال أصدرت أكثر من ٦٠ فرنسية بارزة منهن مناشدة تحث على فرض حظر على "هذا الرمز المرئي لخضوع المرأة".

ويقول منتقدو هذا الاتجاه إن حظر قطعة قماش يتجاهل السبب الجذري للمشكلة وهو الفشل في دمج خمسة ملايين مسلم بفرنسا. والمشكلة ليست الحجاب، كما أنها ليست فرنسية بل غربية عامة، وليست قانونية بل مشكلة حضارية عامة تشبه من وجوه عديدة ما عرف في التاريخ الغربي بـ "المشكلة اليهودية" فهي من زاوية المشابهة إعادة إنتاج للمشكلة اليهودية. وهذه العبارة في الحقيقة مفتاح لفض الاشتباك بين عوامل تاريخية وآنية عديدة فالمسلمون واليهود مرتبطان في الوجدان الأوروبي والهجوم على اليهودية في مطلع عصر التنوير كان في الحقيقة هجوما على الأديان السماوية فكانت "اليهودية" ترمز لكل ما هو سماوي!

ولكي نرسم صورة تقريبية للمناخ الذي أثيرت فيه القضية نتوقف عند بعض التقارير التي ترسم صورة للإسلام والمسلمين في اللإعلام الألماني كمرآة لصورتهم في الوعي الألماني ففي تقرير للإذاعة الألمانية (دويتش فيلله) جاء أن القناتين الألمانيتين "الحكوميتين" الأولى والثانية تتناولان الإسلام بشكل سلبي حيث ٨٠ % من الحالات التي تناولوها صورت الإسلام كخطر على السياسة والمجتمع.

الدراسة واحدة من سيل من الدراسات المماثلة التي تعكس إلى أي حد أصبحت صورة الإسلام والمسلمين لدي وسائل الأعلام الألمانية محور اهتمام كثير من المؤسسات الأكاديمية في ألمانيا، وقد أجراها البروفيسور كاي حافظ والأستاذة كارولا ريشتر من قسم الإعلام بجامعة إيرفورت الألمانية وركزا بالتحديد على دراسة كيفية معالجة القضايا الإسلامية في قناتي التلفزيون الحكوميتين الأولى ARD والثانية ZDF على مدار عام ونصف. ومن النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن القناتين ساهمتا في الترويج لتصورات سلبية تقوم على أحكام مسبقة عن الإسلام وهو الأمر الذي أدى إلى زيادة المخاوف منه وتكريس أجواء صراع الثقافات داخل المجتمع الألماني، ولأن أغلبية المواطنين الألمان لا يرتبطون بعلاقات مباشرة مع جيرانهم المسلمين أو العالم الإسلامي، فإن تصوراتهم عن الإسلام مستمدة بشكل كبير من تقارير وسائل الإعلام.

وحللت الدراسة صورة الإسلام والمسلمين في ١٣٣ مادة سياسية بثتها القناتان بين يونيو ٢٠٠٥ وديسمبر ٢٠٠٦ وتنوعت هذه البرامج بين تسجيلية ووثائقية وتحقيقات وتقارير أو برامج حوارية شهيرة. وكثير من البرامج

التلفزيونية تقدم الإسلام كخطر سياسي اجتماعي، وتربطه بقضايا العنف والنزاعات وأوضحت الدراسة أن ٢٣. ٣١ % من المواضيع المتعلقة بالإسلام في برامج القناتين دارت حول الإرهاب والتطرف ولم تشمل تغطيتهما للقضايا الدينية ازدياد النزاعات العنيفة والمتطرفة في أديان أخرى. كما أن التقارير المحايدة أو الإيجابية حول الإسلام والمنتمين إليه لم تتجاوز ١٩ % مما تم تقديمه تشير النتائج أيضا إلى أن مقدمي البرامج عمدوا في أكثر من ٨٠ % من الحالات التي تناولوها إلى تصوير الإسلام كخطر علي السياسة والمجتمع. كما عمدوا إلى تقديمه كأيدولوجيا سياسية ذات منظومة مخالفة للأنماط السلوكية السائدة في المجتمع الألماني، إضافة إلى ربطه بقضايا العنف والإرهاب واضطهاد المرأة ومشاكل الاندماج والتعصب الديني.

وقد تضمنت الدراسة ملحقاً خاصة بقائمة توصيات للقناتين تطالبهما بمراجعة حيادية وموضوعية للبرامج الخاصة بالإسلام، وإعادة صياغتها لتغطي واقع المسلمين من أوجه متعددة بدل الاقتصار على عرض السلبيات. وحذرت من مبالغة الأجندة الإعلامية الألمانية في الحديث عن خطر أسلمة المجتمع. ويري حافظ وريشتر أن من الأفضل أولا اجتهاد المؤسسات الإعلامية بشأن فهم خلفية المشكلة المعقدة وأسبابها، بدلا من النظر إليها من جانب واحد وتحميل الإسلام المسؤولية في تطور قضايا الإرهاب والعنف.

البداية من ألمانيا:

في هذا المناخ كانت بداية طرح قضية الحجاب في ألمانيا قبل أن تمتد ردود الفعل إلى فرنسا، وقد استمدت القضية أهميتها في الإعلام الألماني من ميراث ثقافي متجذر إلى حد بعيد وإلحاح إعلامي مزمن على العداء للإسلام

نفسه. وتصوير الإسلام كعدو ليس جديدا فله جذور تاريخية بعيدة ترجع إلى الحروب الصليبية. ولكي نتبين المشابهة بين هذا الموقف وموجات العداء الغربي لليهود التي امتدت لأكثر من قرنين وأفرزت في النهاية المشروع الصهيوني ننقل عبارة شديدة الدلالة للباحثة الألمانية المعروفة يوخين هيلر تقول: "ومن المعروف، وليس من قبيل الصدفة، أن تلك العصبية كانت وراء اضطهاد اليهود".

ولم تكن قضية الحجاب في ألمانيا أبدا قضية قانونية دفع للاهتمام بها الحرص على النظام العام بل بدأت وما زالت قضية ثقافية وحضارية خطيرة يحاول الإعلام الألماني تحريف صورتها وتجاهل خلفياتها الحقيقية التي تشير لمأزق عميق يواجهه الغرب في علاقته بالآخر وهو مأزق مزمن. فالصورة التي يرسمها الإعلام الألماني صورة ثقافة عقلانية تنويرية تتعرض لتهديد خطير من "بربرية الإسلام ولا عقلانيته" وبالتالي فمحاولات حصاره ونفيه مشروعة، وتطرح في الإعلام الألماني أسئلة من نوع: هل نتعرض فعلا لخطر حرب مقدسة من قبل المسلمين المتعطشين للانتقام؟

وفي دراستها القيمة "العداء للإسلام في الرأي العام الغربي" تحاول الباحثة الألمانية أندريا لويج الخروج من شرنقة الخطاب السائد فتقول: "لقد استعرض الغرب مؤخرا تفوقه العسكري المروع على بلد إسلامي جيد التسليح ذي خبرة بالحرب هو العراق، فمن أين يأتي التهديد الإسلامي إذن؟ أمن جانب نفسي، أم من الدين، أم من الثقافة؟ الواقع أن الرموز الإسلامية تثير فينا القلق، كما توضح حالة التلميذات المحجبات في فرنسا اللواتي فصلن من المدرسة بسبب ارتدائهن الحجاب ورفضن خلعه أثناء فترة الدراسة، وأعلن مدير المدرسة أن ارتداءهن الحجاب بانتظام وبإصرار يحمل سمة "التحدي والعدوانية

"..... وبعد نزاع طويل قررت المحكمة الإدارية العليا في فرنسا حق الفتيات الثلاث في ارتداء حجابهن أثناء الدراسة".

ولعل من المهم أن نسجل أن هذه الحالة التي ضخمها الإعلام الغربي كما هو معهود تعود للعام ١٩٩٢، وهو ما تعبر عنه لويج بقولها: "إن مصطلحات مثل "الحريم" و"الحجاب" و"الخادمة التركية المحجبة" هي الكليشيهات التي تعنى بها وسائل الإعلام عناية خاصة.... ولنا أن نلاحظ كيف تحولت "قضية حجاب التلميذات" إلى "حرب التشادور" في وسائل الإعلام الفرنسية".

وتورد لويج معلومة تشير بوضوح إلى مركزية الصورة السلبية للمرأة المسلمة في التصور المعادي للإسلام، ولكن المعلومة نفسها تشير إلى الفرق بين الموقف من الإسلام في أوروبا والولايات المتحدة وهو ما سنتوقف عنده في موضع قادم من هذه الدراسة، تقول أندريا لويج مشيرة إلى كتاب أصبح ضمن أشهر أدبيات العداء للإسلام في ألمانيا: فتح كتاب"بيتي محمودي" (لكن لا تأخذ ابنتي) الذي وزع في ألمانيا عشرة أمثال توزيعه في الولايات المتحدة الأمريكية (لاحظ أن سكان الولايات المتحدة لا يقلون عن ثلاثة أضعاف سكان ألمانيا) الباب أمام سلسلة طويلة من الإصدارات التي تناقش حياة المرأة في الدول الإسلامية أو حياة اللواتي يتزوجن من مسلمين. وكلما كان موضوع الكتاب دراميا ووحشيا كلما كان أوسع انتشارا.

القانون أم الضمير؟

في تعليق له على أزمة الحجاب في فرنسا أبدى رئيس مجلس أساقفة فرنسا المونسنيور جان بيار ريكار وأبدى قلقه من جراء "تقدم الدعوة إلى إصدار قانون في هذا الشأن، على تربية الضمائر وعلى نهج تربوي طويل المدى". ولكي ندرك

السياق الصحيح الذي ينبغي أن توضع فيه أزمة الحجاب في ألمانيا نذكر بأن الإصلاح البروتستنتي الذي قضى على حكم الكنيسة في ألمانيا وقضى معه على سيادة المذهب الكاثوليكي كان هدفه الأول منح الضمير الشخصي مكانة أكثر مركزية من تعليمات الإكليروس الكنسي فإذا بقضية الحجاب تعيد ترسيم إكليروس جديد علماني يمارس وصايته على الإنسان ليمنع مسلمة من ارتداء غطاء رأس!!!

وننتقل من التحليل للوصف معتمدين على - في المقام الأول - ما نشره الإعلام الألماني عن المشكلة حتى لا نتهم بالنقل عن مصادر منحازة، ففي البداية أدى الخلاف في أوساط المسؤولين عن التعليم في ألمانيا بخصوص السماح أو عدم السماح للمدرسات المسلمات بلبس الحجاب في المدارس إلى منع بعضهن من ممارسة هذا الحق في ولايات والسماح لأخريات في ولايات أخرى. وقال رئيس مجلس الثقافة الألماني: "إن الحرمان القانوني ليس الطريق لدمج أكثر من ثلاثة ملايين مسلم يعيشون في ألمانيا". وبعد صدور حكم المحكمة أصدر وزراء التعليم في ١٦ ولاية ألمانية بيانا قالوا فيه إن سبعة منهم سيمررون قوانين تمنع المدرسات المسلمات من لبس الحجاب، في حين رأى ثمانية آخرون - بينهم وزير التعليم في ولاية العاصمة برلين - عدم الحاجة لمثل هذا التشريع.

ويؤدي هذا الوضع إلى ترك ألمانيا دون سياسة موحدة بخصوص هذه القضية التي بدأت تثير جدلا في عموم أوروبا، كما أنها تثير انقسامات إزاء مسألة اندماج المواطنين المسلمين في المجتمعات الأوروبية. وبرز الخلاف في ألمانيا بعد حصول معلمة ألمانية من أصل أفغاني كانت منعت من ارتداء

الحجاب عام ١٩٩٨ على حق لبسه في أعقاب حكم المحكمة الدستورية الاتحادية لها بذلك بوصفه ممارسة دينية لا يمنعها الدستور. ويلزم الدستور الألماني الدولة هناك باتخاذ حيادية صارمة إزاء الشأن الديني، لكنه لم يحدد رسميا موضوع فصل الدين عن الدولة. بيد أن تحديا برز مؤخرا من ولاية بافاريا الكاثوليكية حيث تسعى السلطات هناك لحق عرض الصليب في قاعة الدرس، وهو حق حصلت عليه في العام ١٩٩٩.

وحسب تحليل عنوانه "قضية الحجاب أمام محكمة الدستور الاتحادية" نشره موقع القسم العربي لإذاعة الدويتشه فيلله فإن السجال المحتدم في ألمانيا في أوساط الرأي العام وأمام المحاكم حول الحجاب تعود جذوره إلى منتصف القرن الماضي، عندما كانت الدول الأوروبية تنهض شيئاً فشيئاً من دمار الحرب العالمية الثانية وتداوي جروحها وتخطط لبناء حاضر ومستقبل جديدين. ولم يكن الكثيرون قد وضعوا في اعتبارهم حلول تطورات مستقبلية على صعيد هجرة أعداد ضخمة من أبناء شتى شعوب بلدان القارات الأخرى؛ وهي مجموعات لم تأت فقط على شكل هياكل بشرية إنما حملت معها ثقافاتها وعاداتها وتطلعاتها. في ألمانيا مثلاً التي أنزلت فيها الحرب الكونية الثانية من الدمار ما يصعب رصد حجمه في أسطر قليلة تركز الاهتمام الأول على البناء الاقتصادي وعلى وضع دستور ديمقراطي. من أجل البناء الاقتصادي تم جلب عمال بأعداد كبيرة من تركيا. وقدم أيضاً عدد كبير من العمال من إسبانيا ومن اليونان ومن دول أخرى.

وبالنسبة إلى العمال الذين أتوا من تركيا فقد جلبوا دون عائلاتهم وضمن اتفاقيات عمل محددة زمنياً وكان يطلق عليهم "العمال الضيوف". وطالما أن

obeikandl.com

زوجات هؤلاء العمال وبناتهم لم يأتوا معهم لم يظهر عندئذ ما يسمى بقضية رداء المرأة المسلمة التقليدي والديني وما قد يسببه من مشاكل لها إن هي تقدمت إلى العمل لدى الهيئات الرسمية. ومن النقاط الهامة الأخرى أن واضعي الدستور الألماني لم يكونوا لدى التحضير له قد حسبوا حساباً على ما يبدو لما سيطرأ على الهيكلية الاجتماعية من تغير، وضمن ذلك الآثار التي سيخلفها على مجرى الحياة العملية. وبما أن جمهورية ألمانيا الاتحادية دولة علمانية، فإن دستورها ينص على حق الفرد بالحرية الدينية مع تأكيد ضمان الحيادية في المؤسسات التعليمية وبحيث لا يتعرض التلاميذ إلى تأثيرات دينية مختلفة.

ويحتضن المجتمع الألماني اليوم من خلال المهاجرين الذين يعيشون بين ظهرانيه العديد من الثقافات الأخرى ومن بين هذه الثقافات ما يجد صعوبة في التعامل معها بسبب ضآلة معرفته بها. وقد شبت في هذه الأثناء أجيال جديدة من أبناء المهاجرين الذين ينخرطون في شتى صور الحياة التعليمية والمهنية وغيرها. ومع ذلك تبقى صورة الرداء الإسلامي التقليدي تشكل في نظره نوعاً من التحدي ويتم الربط بشكل تلقائي بين المظهر وبين ما يجده دعوة إلى الدين. وهكذا تتوالى الحالات التي يتم فيها رفض مسلمة متحجبة للعمل لدى إحدى الشركات أو في المدارس.

الحرية الدينية وحياد الدولة:

وحسب رأي نائب رئيس محكمة الدستور الاتحادية فينفريد هاسيمير تتمثل عقدة القضية التي تبت بها المحكمة في السؤال عن مدى قدرة المجتمع الألماني على تحمل الديانات الغريبة. أما محكمة الدستور الاتحادية فعالجت (حسب تقرير الإذاعة الألمانية) التأثير النفساني لمعلمة متحجبة على التلاميذ وفي هذا

الإطار قال عالم نفس الأطفال الأستاذ بيتر ريديسر: "إذا كانت المعلمة المحجبة ليست ذات تعصب ديني، لا يتمخض عن ممارستها التعليم آثار عاطفية وتعليمية سلبية"، لكن المختص في علم النفس من مدينة كيل توماس بليسنر فيقول: "من المحتمل أن يسبب الحجاب انعكاس صراعات خارجية على جو المدرسة". وقضاة محكمة الدستور الاتحادية التي تبت حالياً في قضية الشابة المسلمة مضطرون في هذه الحالة إلى الاستنارة في حيثيات الحكم الذي يتخذونه بقطبين أساسين:

١ - الحق بالحرية الدينية.

٢ - واجب الدولة في ضمان الحياد.

وتصل أهمية القضية التي ذهب كثير من الكتاب والمثقفين العرب للتهوين من شأنها إلى حد طرح مسألة تعديل الدستور، فالخبير القانوني فينفريد هاسيمير يرى أن القرار حول الحجاب في المدارس مناسبة لجعل الدستور يتماشى مع متطلبات الوقت الحاضر بحيث يتطرق إلى ظاهرة الهجرة وتباين الثقافات، وهو الوضع الذي لم يكن موجوداً في ألمانيا أيام وضع الدستور. قاضي الدستور بيرتولد سومر يتكلم بشكل أدق قائلاً: "الأمر يتعلق بالتوصل إلى نوع من التوازن بين حقوق المعلمات والتلاميذ والأهالي وبين واجب الدولة في ضمان الحيادية".

وبعد بصدور حكم المحكمة الألمانية حدثت ردود فعل متفاوتة تنقلها جريدة القدس العربي اللندنية في تقرير لها جاء فيه: اتخذت المحكمة الدستورية الألمانية وهي أعلي سلطة قضائية في البلاد قرارا مثيرا للجدل يسمح لكل ولاية ألمانية علي حدة بمنع المعلمات المسلمات من ارتداء الحجاب أثناء مزاولتهن لعملهن في المدارس الحكومية بشرط توفر أسس قانونية في الولاية المعنية. وهكذا تكون المدرسة الألمانية أفغانية الأصل فرشته لودين (٣٠ عاما) حققت

انتصارا جزئيا في ما يطلق عليه في ألمانيا بـ "شجار الحجاب" الذي دخل عامه الخامس بعد أن رفضت لودين عام ١٩٩٨ خلع حجابها أثناء الحصة في إحدى المدارس الحكومية في ولاية بادن فوتنبيرغ الألمانية الجنوبية مستندة في اتخاذها للقرار إلي القانون الأساسي الألماني الذي ينص علي حرية المعتقد وعلي أنه لا يجوز أن يتضرر أحد أو يميز سلبا عن غيره بسبب عقيدته أو دينه، علي حد قول المدرسة المسلمة. وقالت المدرسة في حينها إن الحجاب لا يعتبر مظهرا من مظاهر اضطهاد المرأة، بل إن ما يحفزها علي ارتدائه هو الحفاظ علي حشمتها وحجب جاذبيتها عن الرجل.

وجاء قرار المحكمة الأولى الذي اتخذ عام ١٩٩٨ ليجبر لودين علي الانتقال إلى برلين إذ يمكنها في العاصمة الألمانية مزاولة عملها في إحدى المدارس الإسلامية دون الاضطرار إلي خلع حجابها. وفي برلين لجأت الأفغانية التي تحمل الجنسية الألمانية منذ عام ١٩٩٥ مجددا إلي القضاء، وخسرت لودين للمرة الثانية القضية أمام محكمة إدارية في العاصمة الألمانية. وعلل القاضي اتخاذه للقرار بان ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية يضير بمبدأ الحيادية الذي من الضروري الالتزام به أثناء ممارسة مهنة التدريس في المدارس الحكومية ليعيد بذلك إلى الأذهان معركة الحجاب التي بدأت عام ١٩٩٨.

وقال القاضي إنه اعتمد علي قوانين أساسية كان أهمها القانون الذي يملي علي الموظف الحكومي الالتزام بروح قوانين الدولة وبالتالي الالتزام بالحيادية بما يخص المسائل الدينية، علي حد تعبيره. من جانبه قال المدعي العام إن المسألة تحمل في طياتها معاني سياسية مستشهدا برفض القضاء الألماني عام

١٩٩٥ السماح للمدارس الحكومية في ولاية بافاريا الألمانية الجنوبية بتعليق الصليب في المدارس. ودافعت المدرسة مرارا عن موقفها بالقول إن الحجاب تعبير عن انتمائها الشخصي الي دينها الإسلام وأنه مظهر من مظاهر ارتداء اللباس لدي النساء المسلمات وليس أكثر مشيرة إلى أن إجبارها علي خلعه أثناء ممارستها لمهنتها هو إهانة لها حسب قولها. من جانبها قابلت الصحف الألمانية قرار المحكمة بالانتقاد متهمة أعلي سلطة قضائية في البلاد بالتهرب من تحمل المسؤولية. ووصفت أسبوعية دي تسايت قرار المحكمة بأنه "جبان ويدعو إلى خيبة الأمل" كما اتهمت الصحيفة القضاة بأنهم "خوافون لدرجة انهم لم يكونوا قادرين علي حل النزاع الذي دخل عامه الخامس".

وأضافت أن ما يدعو للقلق هو حرمان المسلمة من معرفة وتوضيح حقوقها قائلة إنه علي ما يبدو أن اتخاذ أي قرار كان بالنسبة للقضاة سيان، ففي حين نصت الفقرة الأولى لقرار المحكمة علي السماح للمدرسة بارتداء الحجاب من أجل تشجيع التسامح بين المسلمين وغير المسلمين، نصت الفقرة الثانية علي النقيض تماما، فقد علل القضاة إعطاء كل ولاية ألمانية الحق في البت في المسألة علي حدة بان منع ارتداء الحجاب ممكن من أجل الحيلولة دون وقوع خلافات مع التلاميذ ومع أهاليهم.

وأصبحت ردود الفعل على قرار المحكمة الموضوع الرئيس في الإعلام الألماني فأجرت مجلة "دير شبيغل" الواسعة الانتشار استفتاء حول الموضوع كشف أن نحو ٦٠ في المائة من الألمان يرون أن قرار السماح بلبس الحجاب في المدارس "خاطئ". وإذا كان استطلاع الدير شبيجل يشير إلى اتجاه عام معاد للحجاب في أوساط الرأي العام فإن هذا الاتجاه العام كان مفقودا في ردود فعل

النخبة من مثقفين ومتخصصين، فمن جانبه عبر رئيس البرلمان الإتحادي "البوندستاغ" وولفجانج تيرزه عن خيبة أمل مريرة لامتناع قضاة المحكمة الدستورية الاتحادية عن حظر ارتداء غطاء الرأس الذي ترتديه المعلمة في قاعة الدرس دون توفر قواعد قانونية حرفية، معتبراً القرار محبطاً ومفتقراً للشجاعة المطلوبة. وتوقع تيرزه أن لا يؤدي القرار المذكور إلى انفتاح أفضل للديانة الإسلامية على الآخرين، بل أن يكون مشجعاً لما يسميه "القوى الرجعية والمحافظة في الوسط الإسلامي". أما حزب الخضر فاعتبر القرار متميزاً بالحكمة، لأنه يقرر أن الحقوق الدينية تسري على جميع أتباع الديانات بغض النظر عن التقاليد الدينية السارية، وهو في تقدير الخضر قرار مناسب لأنه أوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن من المتعين البدء بحوار حول الموضوع داخل صفوف المجتمع، إذ ليس بالوسع رفض غطاء الرأس لمجرد أنه غريب على تقاليدنا، في الوقت الذي نرى قرباً حضارياً يربطنا بالأخوات المسيحيات مع ارتدائهن الملابس الرسمية الشبيهة، بمعنى ازدواجية المعايير.

وكما هو كمتوقع دفع هذا النقاش قضية دور الدين في الحياة العامة وأظهر الفرق بينها وبين فرنسا في طبيعة موقفها من الدين فهي خلافا لفرنسا ليست دولة علمانية وتقيم علاقات ملتبسة مع الكنائس المسيحية. وقد كتبت صحيفة "فرانكفورتر الجماينه تسايتونغ" المحافظة: "يبدو أن الكثيرين لا يدركون أن الحياد الديني للدولة الذي ينص عليه القانون الأساسي الألماني لا يعادل مفهوم العلمانية في فرنسا.... والدستور الألماني مليء بالأفكار اليهودية المسيحية وكذلك الإغريقية الرومانية".

ويضمن القانون الأساسي (الدستور) الذي اعتمد في ١٩٤٩ "معاملة كل الديانات على قدم المساواة"، ويؤكد في مقدمته أنه حرر "إدراكا لمسؤولية الشعب

الألماني أمام الله والبشـــر". ويعود ادخال القوانين المدنية في الدولـة الألمانيـة إلـى جمهورية فايمار التـي يؤكد دستورها الذي اعتمد في ١٩١٩ أن "ليست هنـاك كنيسة للدولة".

وبعد الحرب العالمية الثانية، أدرجت جمهورية ألمانيا الاتحادية هذه المادة في قانونها الأساسي، متخلية بذلك عن فصل يبدو أوضح في فرنسا بموجب الاتفاق في شأن فصل الدين عن الدولـة الموقع في ١٩٠٥. وكانت السلطات الألمانية تأمل حينذاك في أن تساهم الكنيسة في رفع معنويات الشعب بعد الحقبة النازيـة. وفي الواقع، تتسم العلاقة بين الدولـة والكنائس المسيحية بالالتباس، فمثلا "ضريبة الكنيسة" التي تجبيها الدولة من المسيحيين الذين يمارسون شعائر ديـانتهم ويقـدر عـددهم بنحـو ٥٥ مليـون شـخص، مـوزعين بـين كاثوليـك وبروتسـتانت، وأداء القسـم باسـم الله فـي وظـائف رسـمية أمـر شـائع، وكـان الاشتراكي الديموقراطي غيرهارد شرويدر، المستشار الوحيد الذي لم يقسم بهذه الطريقة. ومع ذلك، لا تقتصر الإشارة إلـى القيم المسيحية على الحزب الديموقراطي المسيحي، فقد أدرج الحزب الاشتراكي الديموقراطي في برنـامج مؤتمره الأخير قداسا في الكنيسة.

وهذا الالتباس واضح أيضا في المدارس، حيث يسمح للراهبات بالتدريس في ملابسهن الدينية ويسمح بوضـع الصلبان فـي الصفوف، بينما دروس الدين الاختيارية يجب ان تكون مدرجـة فـي البرنـامج. وحسب فرانكفورتر ألجماينـه تسايتونـغ فـإن "الالتباس بين الكنيسة والدولة يبرر عدم معاملة كل الديانات علـــى قـــدم المساواة"، موضحـة من جهـة أخرى أن "الحجاب قبل كل شيء مؤشر سياسي يشـــهد على خضوع المرأة وأنه لذلك يتناقض مع القانون الأساســـي". وهاتـان الحجتـان يؤمن

بهما عدد كبير من الشخصيات من كل الاتجاهات السياسية التي تدافع بقوة - ودون أن تكون بالضرورة مؤيدة لمنع الحجاب - عن "الإرث المسيحي". وقد ذكر شرويدر أن ألمانيا "ليست علمانية بل تطبق القوانين المدنية"، وهي مشبعة بـ "مفاهيم اليهودية المسيحية"، معبرا عن تأييده لمنع الموظفات من ارتداء الحجاب خصوصا المدرسات. وقال رئيس مجلس النواب الاشتراكي الديموقراطي وولفجانج تيرزه إن "الحياد حيال الديانة من واجب الدولة مبدئيا" لكنه رأى أن "الصليب ليس رمزا للقمع خلافا للحجاب للمسلمات".

وعارض رئيس الدولة يوهانيس راو (وهو أيضا اشتراكي ديموقراطي) كل هذه الحجج وأثار غضب الكنيسة والمحافظين بتأكيده أن منع الحجاب يجب ان يرافقه منع الرموز الدينية الأخرى، وبينما تقف الجالية المسلمة التي تضم ٢، ٣ مليون شخص غائبة تماما عن الجدل، وقد كتبت مجلة "دير شبيغل" إن "الألمان يجب أن يطبقوا النموذج المعقول جدا المتبع في فرنسا وتركيا".

من ألمانيا إلى فرنسا:

ورغم أن ألمانيا كانت أسبق في صدور حكم قضائي بشأن الحجاب فأن مشكلته كانت مثارة في فرنسا بدرجة أقل منذ العم ١٩٨٩، وفيه اعتبرت الكاتبة الفرنسية ميشيل تريبالات المؤيدة لمنع الحجاب في المدارس الرسمية سنة ١٩٨٩ بأنها "إسلامية". وهذا عنوان فقرة من كتاب "الجمهورية والإسلام" لميشيل تريبالا (مديرة أبحاث بالمعهد الوطني الفرنسي للدراسات الديمغرافية، وسبق لها أن كانت عضوا بالمجلس الأعلى للإدماج رفقة صديقتها جان هيلين كالتينباخ التي اشتركت معها في إنجاز الكتاب المذكور). وآخر سنة من عقد ثمانينيات القرن الماضي اعتبرت إسلامية لكثرة قضايا الحجاب في فرنسا

وأوروبا وتركيا. وفي خريف تلك السنة تفجرت قضية الحجاب بفرنسا واحتلت كل شاشات التلفاز الفرنسي رغم انشغال أكثر من ٥٣% من الفرنسيين بانهيار حائط برلين وسقوط المعسكر الشيوعي وإسقاط الطاغية الشيوعي الروماني تشاوشسكو (٢٢ ديسمبر ١٩٨٩).

بدأ الانفجار في جريدة "لوكورييه بيكاريو" في الثالث من أكتوبر بعد أن أقدمت إدارة ثانوية "دوكريي" على طرد ثلاث تلميذات محجبات، لتتوالى الأحداث بعد ذلك ابتداء من أسر التلميذات وانتهاء بسيدة فرنسا الأولى يومذاك "دانييل ميتيران" زوجة الرئيس المتوفى فرانسوا ميتران، مرورا بجمعيات مناهضة للتمييز العنصري وجمعيات مسلمي فرنسا: مثل التبليغ واتحاد المنظمات الإسلامية والفيدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا. ومنذ ذلك التاريخ وقضية الحجاب تسخن وتبرد حسب درجة حرارة الأحداث. إلى أن جاءت قضية تمثيلية المسلمين وتنظيم أنفسهم لتعيين مخاطب للحكومة. وما إن قبل المسلمون هذه الفكرة وتوجوا نحو تشكيل "المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية" حتى احتد النقاش من جديد وصوب الإعلام، المكتوب أكثر من غيره، النظر والكتابة نحو "الحجاب".

وفي مقال ظهر يوم ٢٤ شتنبر في يومية "لوفيغارو" الفرنسية كتبت ميشيل تريبالا تشرح لماذا يحتد النقاش حول الحجاب الإسلامي بفرنسا أكثر من غيرها. وأوضحت أن الإجابة عن هذا السؤال مستحيلة من دون جولة تاريخية تعيد رصد المواجهة الحادة بين الكنيسة الكاثوليكية والدولة وكيفية حلها. وقالت الكاتبة عن هذا الأمر: "أنجزت العلمنة بطريقة عنيفة وقوانين ١٩٠١ و١٩٠٥ أبرزت معارضتها للكنيسة، فقانون ١٩٠١ يلزم الكنيسة بأن تحصل على موافقة من الدولة من

obeikandl.com

أجل وجودها (...) ثم انتزع منها الإشراف على القوانين المدنية والمدرسة الـتي أصـبحت ضدها فيما بعد"، وإذا كان النزاع قد انتهى بين الطرفين وحل السلم فلأن الكنيسة أخذت بالضربة القاضية، وخضع الفرنسيون للعلمانية الغالبة وقوانينها وتخرجوا من المدرسة التي تكفلت بهذا الأمر وأفرغت من كل مظاهر التعبير الديني.

ورغم أن مجلس الدولة قد أصدر قرارا حول ارتداء الحجاب في المدرسة بعد طلب من رئيس الوزراء الاشتراكي الأسبق ليونيل جوسبان، فإن الباحثة تعتبر سلوك الوزير مناورة تجنب بها أن يكون في الصدارة، كما تعتبر قرار مجلس الدولة الذي أقر أن ارتداء العلامات الدينية لا يضر بالعلمانية في شيء قرارا يحرف العلمانية عن موضعها ومعناها. وتتحدث الكاتبة باسم الفرنسيين أجمعين معتبرة أنهم شعروا بالخيانة عندما حرف معنى العلمانية ليسمح لمظاهر التعبير الديني أن تحتل المجال العام والمجال المدرسي، وذلك ما استفاد منه الدين الإسلامي وحده، في وقت كانت فيه عملية استئصال التدين من المدرسة قد تمت على حساب الكاثوليكية. وتستحضر الكاتبة حيوية الإسلام وصحوته في مقابل حال الكنيسة المعلوم وتدرك أن الكفة مائلة لا محالة للأول، فتعبر عن ذلك قائلة بالحرف: "لا يفهم الفرنسيون لماذا طلبت منهم تضحيات كبيرة لما تعلق الأمر بالكنيسة، في حين لا يطلب الحد الأدنى من الإسلام عندما يـأتي دوره. المبـدأ الجميل للعلمانية الذي تربوا على احترامه لم يكن سوى وصفة لإسقاط الكنيسة ليس إلا".

وليست الخيانة مقصورة على مجلس الدولة في نظر الكاتبة، بل تتهم السياسيين أيضا بخيانة الفرنسيين بتخليهم عن مسئولياتهم وتورد لهم مواقف وتصريحات دافعوا فيها عن حرية التدين أو اتخذوا موقفا محايدا. وتعرب

تريبالا عن تخوفها من تكرار ما حدث سنة ١٩٨٩ وتتمنى أن يتغلب السياسيون على مجلس الدولة وألا يكلوا لـه النظر في النازلـة من جديد، كما تخوفت من اللجنة الرئاسية المكلفة بمناقشة الموضوع من أن تخنق النقاش السياسي حسب تعبير الكاتبة. والحل في تقديرها هو توسيع النقاش حول الشخصية الوطنية الفرنسية وهضمها للعلمانية. وردت على الذين يقولون إن قانونا يمنع الحجاب سيكون تمييزا ضد المسلمين لأنه سيطبق على الفتيات المحجبات فقالت: "العكس هو الصحيح. إذا كان المسلمون معنيين بقانون مثل هذا، فلأن كل الآخرين انتهوا إلى الاستسلام لقوانين اللعبة، وإذا ما تخلينا عن هذا ظلم عظيم للفرنسيين غير المسلمين الذين قبلوا الخضوع لهذه القاعدة العامة والتي لا يمكن أن يستثنى منها القادمون الجدد".

غير أن للقصة بدايات كانت منذ ١٩٨٥ في "نويون" حيث ظهرت الفتيات المحجبات اللائي يرفضن دروس السباحة والرياضة والرقص، ثم تصاعدت في ١٩٨٨ باكتشاف الانتماء الديني لعدة تلاميذ يتغيبون جماعيا عن أقسامهم بسبب العيد، وأخيرا انفجر المشكل عندما أجمع كل أعضاء مجلس إدارة ثانوية كريي على وضع حد لوضعية وصفت بغير المتسامح في شأنها، وطبقوا يومها منشور ١٥ مايو ١٩٧٣ الذي يمنع كل إعلان عن الانتماء السياسي والديني، وكذلك كل شكل من أشكال الدعوة في المؤسسات، ولما قامت الجمعيات المسلمة تحتج وتدافع عن حرية التعبير والتدين، اعتبرت مواقفها وتصريحاتها وحتى حضورها بمثابة "فتح إسلامي" للأرض الفرنسية، وتكاثرت الكتابات الصحافية والأكاديمية في هذا السياق، وتعتبر ميشيل تريبالا صاحبة كتاب "الجمهورية والإسلام بين التخوف والعمى" (بالتشارك مع جان هيلين كالتنباخ) نموذجا عن ذلك.

ففي فقرة من كتابها حول الموضوع (فصل الحجاب والجمهورية) سمتها "فاعلون مسلمون جدد: الفاتحون" اعتبرت فيها الجمعيات والهيئات المسلمة المتدخلة مثل اتحاد المنظمات الإسلامية، والتبليغ واتحاد الشباب المسلمين والفيدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا... منظمات تسعى لأسلمة فرنسا وإدخال أهلها في الدين القويم (ص ١٩٢- ١٩٤). ولم تهدأ العاصفة إلا بعد أن رفعت القضية إلى المجلس الأعلى الفرنسي من لدن ليونيل جوسبان (الوزير الاشتراكي ورئيس الوزراء) لتتوقف الحملات والحملات المضادة.

وكانت ٢٠٠٣ سنة الاعتراف الرسمي بالإسلام في فرنسا، إذ تأسس فيها المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية وبالموازاة مع مداولات التأسيس شُنت حملة إعلامية جديدة حول الحجاب الإسلامي من جديد. في هذا السياق الساخن شكل الرئيس الفرنسي لجنة سطازي، وإلى جانبها تشكلت اللجنة البرلمانية برئاسة رئيس البرلمان دوبري. اللجنة الأولى تشكلت من ٢٠ من "الحكماء" وعملت لمدة ٦ أشهر عقدت فيه ١٢٠ جلسة اجتماع وقدمت تقريرها للرئيس مقترحة عليه مجموعة من المقترحات حول الحجاب وحماية العلمانية وإدماج المسلمين.

والتناقض الذي كشف عنه الجدال حول الحجاب كان أعمق من ظواهره، لأنه كشف عن المكون الإلحادي في الصيغة العلمانية الفرنسية وبدا من موقف الكنائس الفرنسية الرافض لحظر الحجاب أن الموقف الفرنسي هو من التدين قبل أن يكون من الإسلام كدين، فقد حثت كنائس مسيحية في فرنسا على عدم فرض حظر على الحجاب باعتبار أن إخفاق فرنسا في دمج مواطنيها المسلمين يعد مشكلة أكثر خطورة، كما انتقدت الرسالة تصاعد نغمة مناهضة التدين خلال الجدل المتعلق بالحجاب وهو ما عبر عنه مرة أخرى رئيس مجلس

أساقفة فرنسا المونسنيور جان بيار ريكار إذ من أن يؤدي الخوف "حيال أنـواع معينة من التعابير الإسلامية أو الفئوية إلى ريبة حيال كل أشكال التعابير الدينية".

وقالت الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية والارثوذكسية في رسالة موجهة لشيراك إن فرض قانون ضد ارتداء الحجاب لن يحل نزاعا محتدما حول ما إذا كان ارتداء رموز دينية ينتهك قوانين فرنسا الصارمة للفصل بين الكنيسة والدولة. والفشل في تحقيق اندماج أفضل لخمسة ملايين من مسلمي فرنسا في الدولة البالغ تعداد سكانها ٦٠ مليونا يمكن أن يدفع البعض للجوء للعنف.

وقالت الكنائس الفرنسية في الرسالة: "إيماننا الراسخ هو أن إصدار قوانين ليس السبيل لحل هذه المشاكل بإيجابية" منتقدة مسارعة السياسيين للجوء لخيار فرض حظر مما يمكن أن يعزز من مشاعر المسلمين بأنهم مرفوضون من المجتمع.... والقضية الحقيقية في النقاش الدائر هي بالفعل النجاح في الاندماج.. الجماعات التي تستجيب أكثر لمطالب إسلامية تعيش في (الجيتوات) التي سمحنا لها أن تنمو في أحياء حول مدننا الكبيرة. وهنا تظهر ربما للمرة الأولى إحدى الأدبيات الكلاسيكية لمعاداة اليهود لتستخدم لوصف مسلمي فرنسا.

وقد أظهرت نتائج استطلاع للرأي أجري قل سن القانون أن ٥٧ بالمئة ممن استطلعت آراؤهم يرغبون في حظر أشكال الرموز الدينية كافة في المدارس والمؤسسات العامة ولكن ٤١ بالمئة يعارضون فرض حظر. وتنقسم الجالية اليهودية في فرنسا حول مسألة فرض الحظر حيث يعارضه الحاخام الأكبر جوزيف سيترول ولكن روجر كوكرمان الذي يرأس المجلس الذي يضم المنظمات اليهودية في فرنسا يسانده.

الحجاب ومبادئ العلمانية:

وفي مقارنة تظهر الفرق الجوهري بين العلمانيتين الفرنسية والألمانية قال وزير الداخلية نيكول ساركوزي في حوار لمجلة لونوفيل أوبزرفاتور (١٧ - ١٠ - ٢٠٠٣): "أريد أن أقول لمسلمي فرنسا وأنا الذي حرصت على ضمان كل حقوقهم أن يحترموا مبادئ العلمانية في فرنسا؛ فلا للحجاب في المدارس عندما يكون مظهر تفاخر، ولا للحجاب أمام شبابيك الإدارات العمومية". وقال ساركوزي: "إن الفتيات اللاتي ولدن في فرنسا يرتدين الحجاب لسببين: أولهما أنهن لا يشعرن بالأمن في بعض الأحياء إذا لم يكُنّ متحجبات، وهنا يكمن تقصير الدولة. والأمر الثاني هو النظرة التي ينظر بها غير المسلمين إلى هؤلاء الفتيات، وهذا الأمر يتعلق بإثبات الهوية؛ فيلجأن إلى ارتداء الحجاب". وقال مسئول فرنسي آخر: "إننا نحترم مدرسة الأمة التي ترفض علامات التمييز الديني والعرقي والطائفي. وعلى من لا يحب الجمهورية الفرنسية الانتقال للعيش في بلد آخر"!!!!

من ناحية أخرى قال النائب في حزب "الاتحاد من أجل الحركة الشعبية" آلان مادلين الذي عارض القانون وصوّت ضده، وهو وزير ونائب أوروبي سابق إن جوهر معارضته للقانون مرده إلى كونه غير مجدٍ وينطوي على تهديد باستهداف المسلمين من جهة وبتعزيز الأطراف الأكثر تشدداً من جهة أخرى. ورأى أنه بدلاً من إصدار قانون يحظر الحجاب في المدارس كان من الحكمة التشاور مع ممثلي مسلمي فرنسا حول تدابير تتيح للتلامذة المسلمات التوفيق بين التزاماتهن الدينية ومتطلبات العيش المشترك في ظل العلمانية. وشكك مادلين في ما يقال عن أن القانون هدفه حماية القيم الجمهورية، لأنها برأيه ليست عرضة للتهديد، فهناك مجابهة قائمة والمهم ألا تتحول إلى

حرب دينية بين العلمانيين المتشددين والمسلمين المتشددين. ومن هذا المنطلق يعتبر أن وجود حوالي ١٥٠٠ تلميذة محجبة في المدارس الفرنسية ليست قضية تستوجب تعبئة الجمهورية وأنه بدلاً من إنشاء لجنة حول العلمانية كان ينبغي إنشاء لجنة حول الإسلام والجمهورية. فالقانون الذي أقر سيحل ربما مشكلة الحجاب في المدرسة، لكن المسألة في الجوهر تتجاوز عملياً نطاق المدرسة، إن فرنسا غير قادرة حتى الآن على تقبل التعددية التي باتت جزءاً لا يتجزأ من مجتمعها وإن لديها خطباً مطولة عن الاندماج لكن الممارسة أدت إلى بروز "غيتوات". وهنا ومع قاموس "الجيتو" نعود إلى الارتباط في الذهن الأوروبي بين المسلمين كفئتين تدينان بدين سماوي.

* * * * *

obeikandl.com